

دعوة الحق

الطريق إلى النصر

تأليف
محمد عبد الله فودة

السنة الرابعة
العدد [٤٥]

ذى الحجة ١٤٠٥ هـ
سبتمبر ١٩٨٥ م



الطريق إلى النصر

تأليف
محمد عبد الله فوده

الإهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ
جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .
فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ
فِي سِتَّةِ آيَاتٍ وَقَالُوا لَوْ أَنَّ بَيْنَنَا
وَبَيْنَهُمْ سُلُوكٌ سَوَاءٌ لَأَقْبَلُوا الْبَاسَ
فَإِنْ تَوَلَّوْا يَكُنِ اللَّهُ لِقَوْمِهِمْ
رَاضِيًا بِمَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ فَبَدَّلُوا
الْآيَاتِ﴾

[سورة آل عمران ، الآيات ١٧٣ - ١٧٤]

المقدمة

فى سنة ١٩٥٢ طلب إلى الأستاذ المرحوم محمد الصرفى محرر مجلة [النهار] بالمنصورة كلمة فى خمسة أسطر فأعطيته الكلمة ، فكانت هذه الكلمة وهى « حقائق النصر » موضوع كتابى هذا الذى فرغت من كتابته فى سنة ١٩٥٦ ، ومنذ أيام خطر لى وأنا مشغول بالتفكير فى اعداد رسائل الوعى الاسلامى « بألوانه الأربعة » :

- (١) الوعى السياسى .
- (٢) الوعى الدينى .
- (٣) الوعى الاجتماعى .
- (٤) الوعى الاقتصادى فى ضوء ما جاء بالكتاب والسنة .

وقد رأيت أن أبدأ بهذا الكتاب « الطريق إلى النصر » ليكون مفتاحاً لهذه الرسائل وتمهيداً لها وهو يشتمل على كثير من الوعى الدينى والوعى السياسى والوعى الاجتماعى والوعى الاقتصادى لأن الحاجة ماسة إلى ترشيد المسلمين فى هذا العصر وتوجيههم إلى ما عندهم من الكنوز النفيسة التى يفتقر إليها العالم أجمع ، وإذا كان المسلمون قد غفلوا عنها ومدوا أيديهم ليأخذوا من عند غيرهم من غربيين وشرقيين نظمهم ومبادئهم وإذا كانت هذه النظم وتلك

المبادئ لم تنجح في إسعاد واضعيا ولم تهنيء لهم ما يريدون من أمن وأمان ، فكيف يلجأ إليها من جعلهم الله خير أمة أخرجت للناس بما شرع لهم من أحكام وقوانين تضمن للعاملين بها مسلمين وغير مسلمين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

ونحن في هذه الرسائل عاملون على تجلية الأحكام الشرعية في ضوء ما جاء في الكتاب والسنة حتى يعلم الناس ما عندنا مما يكفل للعالم أجمع سعادة أبدية تصلح معاشهم ومعادهم . وعندئذ يلتقون على مبادئ العدل والحق والمحبة والاخاء الإنساني وهذا أمل تحلم به الأجيال في حاضرها ومستقبلها .

والله أسأل أن ينفع بهذه الرسائل ، وأن يجعلها في ميزاني ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(١) ..

المؤلف

(١) اقتباس من الآيتين ٨٨ - ٨٩ من سورة الشعراء .

حقيقة النصر

ليس النصر حلمًا من الأحلام ، ولا وهماً من الأوهام ، إنما هو حقيقة ربانية ، يؤتيه الله من يشاء ، بما يشاء ، وكيف يشاء ، وهو العزيز الحكيم .

ليس النصر إلا انتصار حق على باطل ، وخير على شر ، وصلاح على فساد ، وهدى على ضلال ، وإيمان على كفر ، وقوة على ضعف ، وسعادة على شقاء .

ليس النصر إلا انتصار الروح على الجسد ، وانتصار العقل على الهوى .

فمن تخلف عن نصرة الحق كان من الخاسرين ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَّاصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصُوا بِالصَّبْرِ﴾^(١)

ومن جانب الحق وقع في الباطل ، وليس هناك منزلة بين المنزلتين ، فان للأمور وحدة تنظمها وللحقائق مقياس لا تخطئها ، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرِفُونَ﴾^(٢)

(١) سورة العصر . الآيات ١ - ٣ .

(٢) سورة يونس . الآية ٣٢ .

الحق واحد لا يتعدد ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (١)

إن الله حق ، ووحدانيته حق ، وليس وراء ذلك إلا الشرك ،
فالشرك باطل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ
الْبَاطِلُ﴾ (٢) «من نصر الحق نصر الله ، ومن نصر الله نصره الله»
﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٣)

إن من حالف الباطل حالف الشيطان ، والشيطان مطرود من
رحمة الله : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤)

والشيطان هو الذى يوسوس فى صدور الناس لينحرف بهم عن
الجمادة ، ويصرفهم عن الصراط المستقيم صراط الله الذى هدى
المؤمنين إلى طاعته ، وجنبهم معصيته ، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا
يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ
يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾ (٥)

إن شياطين الجن والانس يحملون العداوة للمؤمنين ،
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (٦)

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٨ .

(٢) سورة الحج : الآية ٦٢ .

(٣) سورة الحج : الآية ٤٠ .

(٤) سورة الحجر : الآية ٣٥ .

(٥) سورة البقرة : الآية ٢٥٧ .

(٦) سورة الأنعام : الآية ١١٢ .

ولا ولاية لهم إلا على الكافرين ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

إن الله علمنا أن نستعبد به من شياطين الجن والإنس .
﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْغِيَةِ
وَالنَّاسِ ﴾ (٢)

الحق لا بد أن ينتصر ، ولكن في غير عجلة الانسان .
﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ (٣) وإنما في حكمة الحكيم العلام
« إن الله لا يعجل بأحدكم » (حديث شريف)

إن أفعال الله لا تخلو من حكمة ، ولا تجرى إلا على مشيئته
﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (٤) ﴿ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (٥)
﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (٦)

كم باطل تزيابزى الحق دهرًا ، وتراءى في ثوب النصر حيناً حتى
جاء أمر ربك . فزهق الباطل ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾
وخر أهله صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا
عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ (٧)

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٧ .

(٢) سورة الناس : الآيات ١ - ٦ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ١١ .

(٤) سورة الإنسان : الآية ٣٠ .

(٥) سورة البروج : الآية ١٦ .

(٦) سورة الأنبياء : الآية ٢٣ .

(٧) سورة الفرقان : الآية ٢٣ .

وبين عجلة الانسان ومشية الرحمن تضل الهموم ، وتزل الأقدام والشیطان مترص بأوليائه ﴿لَا غَوِيَّ لَهُمْ إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ إن الشيطان ليعترف فى مرارة أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه .

شاء الحكيم الرحيم أن يشرح صدور عباده المؤمنين فأكد للشیطان يأسه من غوايتهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ (١)

لقد حذر الله بنى آدم أن يفتنهم الشيطان كما فتن أباهم آدم : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢)

ليس الشيطان الا الروح الخبيث الذى يزين الشر ويغوى به كما تفتن الدنيا عشاقها وتغريهم شهواتها ، فاذا ما ركنوا إليها وغرهم متاعها . ركلتهم بأرجلها . وصرعتهم تحت أقدامها : ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وعداوتها فى هذه الحال كعداوة الشيطان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا . إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٣)

(١) سورة الحجر : الآيات ٤٢ - ٤٤ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٧ .

(٣) سورة فاطر : الآيات ٥ - ٦ .

لقد جعل الله الخسران حظ الشيطان وحزبه في الدنيا والآخرة :

﴿أَسْتَحْذِرُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١)
أما حزب الله فهم أولياؤه وأحباؤه ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢)

إن الشيطان لا ينفك يطارد بنى آدم ، ويتربص بهم الدوائر وينصب لهم الحبائل ، وحبائله الشهوات ، ولذا شبه الرسول لمكايد الشيطان «إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم في العروق فضيقوا مجاريه بالصيام» والصيام وسيلة الانتصار على الشهوات ، نسخرها ولا تسخرنا ، وتكون لنا ، ولا نكون لها ، فنحن نشتهي لنأكل ، ولا نأكل لنشتهي ، كما يفعل أهل الضلال والفساد أسرى الشهوات ، وعبيد الهوى ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَلِيْلَهُمْ أَلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾^(٣) ﴿وَأُمِلِّي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾^(٤)
إن الخضوع للشهوات مفتاح الهزيمة والشر ، والحد من سورتها والنيل من سلطانها ، وتسخيرهم للجسم ، مفتاح النصر وطريق السيادة والعزة ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(٥)

(١) سورة المجادلة : الآية ١٩ .

(٢) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

(٣) سورة الحجر : الآية ٣ .

(٤) سورة الاعراف : الآية ١٨٣ .

(٥) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

« والنفس أخبث من سبعين شيطانا »

ليست حرب الشهوات بالأمر الهين ، فانها مطايا الشياطين ،
إنها الباب الذى يلججه إلى النفس بوحى يوحى بالغرور ويوسوس
بالشرور انها مجارى الشياطين ، وقد أمرنا بتضييقها بالصيام .

إن شهوة الطعام أساس الشهوات ومصدرها ، ولذا حذر
الاسلام منها ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا
وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ^(١) .

والرسول الحكيم يقول : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من
بطنه »

لما بعث حاكم مصر بهداياه إلى رسول الله ﷺ ، قبلها الا
الطيب ، وقال قولته الخالدة : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا
أكلنا لا نشبع » .

لقد كانت حياة الرسول الأمين مثلاً أعلى للتقشف والزهد لقد
كان يجتزىء بأقراص الشعير ، وكان يربط على بطنه من الجوع لعدة
أيام ، كان ينام على سرير من جريد ، وحشية حشوها ليف كان
يخصف نعله بيده ، ويرقع ثوبه .

طلبت إليه ابنته فاطمة خادماً يعينها على شئونها ، فقال :
« لا أعطيك وأدع أهل الصفة تعلو بطونهم من الجوع ، استعنى
بالنسيج والتكبير » .

(١) سورة الأعراف : الآية ٣١ .

لقد راودته الجبال الشم أن تكون له ذهباً ، فأبى إلهاء . لقد حكى الله تعبير الكفار لرسوله بالفقر ، ثم رد عليهم بأنه لو شاء لجعل له جنات تجري من تحتها الأنهار وجعل له القصور العظيمة ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ . ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ ... ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَبْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَيَجْعَلْ لَّكَ قُصُورًا ﴾ ^(١) .

وهذا عمر (رضى الله عنه) يحذر المؤمنين من البطنة ، فيقول : « إياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصلاة مفسدة للجسد » ويقول : « المعدة بيت الداء والحمية أصل كل دواء » . ولقد كانت سيرته مضرب الأمثال في انتصاره على شهواته ، فما كان في عام الحجاعة يأكل إلا خبز الشعير ، ولا يأتمد إلا بالزيت والخل والملح بينما ترد اله غنائم كسرى وقصر قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، لم يسمح لزوجه أن تصنع له الحلوى فاحتالت لذلك باقتطاع جزء من راتبه وهو دراهم معدودة ، فلما قدمتها له أمر بخصم ما اقتطعته من راتبه لأنه ليس في حاجة إليه .

وهكذا كانت المدرسة المحمدية التي صنعت التاريخ وخرجت الأبطال ، عقلت جامعات الغرب والشرق أن يلدن لهم نظيراً ! لقد رشحهم الانتصار على شهواتهم للنصر في جميع الميادين فلما تمكنوا من هزيمة شهوة البطن - تمكنوا من الانتصار على شهوات الجسد جميعاً ، وشهوات الجسد طائفتان ، طائفة تتولد

(١) سورة الفرقان : الآيات ٧ - ٨ . ١٠ .

مما يدخله من طعام وشراب ، وطائفة تقوم على ما يخرج من
الجسد ، تدفعها سورة الطعام والشراب التي هي مسابح الشياطين
ومعارج المعاصي - والمباعد على الفسوق .

إن المسرفين في طعامهم وشرابهم يملئون أجسادهم نارا
ويشعلون في دمائهم أوارا ، فتلهب الأجسام ، كما تلهب الحجارة
في نار جهنم ، فتكتوى بنارها أصحابها ، ومن يركنون إليهم ،
﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتَمَسَّكُمْ النَّارُ ﴾^(١)

وشر أنواع الظلم ظلم الإنسان نفسه ، ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٢)

لقد ظلم آدم نفسه بأكله من الشجرة التي نهاه الله عنها ﴿ وَلَا
تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ،
فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾^(٣)

أخرجت الشهوة آدم من جنته ، فاستحق أن يطرد منها وأن
يهبط مع الشيطان ليكون له عدوا ، ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ . وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾^(٤)

لقد اختلت صفوف المسلمين في ميدان هذه الشهوة ، فاختلت
صفوفهم في جميع الميادين فمن عجز عن شهوة البطن كان عن
شهوة الفرج أعجز ، فلا غروا إذا تلازمت الشهوتان ، وتعاون

(١) سورة هود : الآية ١١٣ .

(٢) سورة الروم : الآية ٩ .

(٣) سورة البقرة : الآيتان ٣٥ - ٣٦ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٣٦ .

العدوان على حرب الانسان ، والشيطان قرير العين جذلان ، يسعر النار ويشعلها ويوقد الشهوة ويوقظها ، والانسان خلق ضعيف لا قبل له باعدائه في داخل نفسه وفي خارجها . فيصبح للشيطان صاحباً ، فيستحوذ على ضحاياه ويستبد بهم ، لأنهم حزبه وشيعته ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١)

لقد نكسوا على رؤوسهم ، بعد أن استولت عليهم الشهوات ، فحبسوا أنفسهم في أثونها واحرقوا أرواحهم في سعيها ، فصاروا كالبهائم ، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

لقد سخرُوا أرواحهم لعقولهم ، وسخرُوا عقولهم لأجسامهم ، ثم سخرُوا أجسامهم لشهواتهم وسخرُوا شهواتهم لشياطينهم ، وليس بعد ذلك ضلال وخسران : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (٢)

أما المؤمنون حقاً ، فقد سخرُوا شهواتهم لأجسامهم ، ثم سخرُوا أجسامهم لعقولهم ، ثم سخرُوا عقولهم لأرواحهم ، ثم سخرُوا أرواحهم لعبادة ربهم ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الْشَّاكِرِينَ﴾ (٣)

إن من ادركته الهزيمة في نفسه فلن يعرف النصر طريقه إليه

(١) سورة المجادلة : الآية ١٩ .

(٢) سورة سورة يس : الآيات ٦٠ - ٦٢ .

(٣) سورة الزمر : الآية ٦٦ .

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١)

إن أولئك الذين استبعدهم الشيطان لابد أن يستخدمهم في محاربة خصومه ممن يشس من اغرائهم ، وعجز من افسادهم .
 إن أولياء الشياطين أوعية للشر ، ومصدر للعدوان ، فهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، ويجهدون أنفسهم في اختلاس هذه النعم ، ويسعون إلى إثارة الحرب ، لعلهم يشفون ما استقر في جنوبهم من الغيظ والحق ، وما ملأ قلوبهم من الغل والحق ، فيتخذون الاعتداء ذريته لهم ، والبطش وسيلة لأظهار وقسوة عداوتهم ، ولهذا كانت حروبهم التي عرفها التاريخ حروباً عدوانية أما حروب المؤمنين فهي دائماً حروب دفاعية .

لقد سجل الدستور الاسلامي هذه الحقيقة ، فقال تعالى :
 ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٢) وقال : ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (٣)

وقال : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاِجْتَحِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (١)

(١) سورة الكهف : الآية ١٠٤ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٠ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٩٤ .

(٤) سورة الأنفال : الآيات ٦١ - ٦٢ .

لقد انطوت قلوب الأعداء على الحرب والاهلاك ، فما هي الا
ثائرة تصطنع ، أو حيلة تبتدع ، حتى تعلن الحرب ضروساً شعواء ،
فيهب المؤمنون للدفاع عن أنفسهم وعن عقيدتهم ، تحف بهم
الملائكة وتنزل عليهم بالنصر .

إن الحروب التي خاضها الرسول (ﷺ) والمؤمنون ، شاهدة
على هذه الحقيقة : هجوم من جانب الكفار ، ودفاع من جانب
الرسول (ﷺ) والمؤمنون .

بدأت الدعوة الاسلامية سرّاً وفي حدود ضيقة : ﴿وَأَنْذِرْ
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١)

شفقة على المؤمنين من أذى المشركين ، صنائع الشياطين فلما
شرح الله لها الصدور وأشرقت بنورها القلوب ، أمره الله أن يجهر
بدعوته ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّا كَفَيْنَاكَ
الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٢)

ثم أعطاه الله ضماناً لحمايته ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (٣)
فلما اشتد أذى الكفار للمؤمنين أمروا بالهجرة فرارا بدينهم .
(وأخيراً لجئوا لتدبير قتل الرسول (ﷺ) عندئذ أطلعه الله على
تدبيرهم ، وأمره بالهجرة إلى المدينة بعدما لبث بينهم ثلاثة عشر
عاماً ، يتحمل أذاهم ، ويصبر على مكرهم وكيدهم .

(١) سورة الشعراء : الآية ٢١٤ .

(٢) سورة الحجر : الآيتان ٩٤ - ٩٥ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١)

بينما كانت قلوب الكفار حاشدة بالحق والعداوة ، كان الرسول والمؤمنون تمتلئ قلوبهم رحمة واشفاقاً على أهلهم وذوى قرباهم من الكافرين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢)

لقد نزلت الآيات تغرى الرسول حيناً ، وتخفف عنه حيناً ، وتعاتبه حيناً آخر ، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (٣)

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (٤)
﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥)

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٦)

﴿وَإِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٠ .

(٢) سورة التوبة : الآيتان ١٢٨ - ١٢٩ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٧٢ .

(٤) سورة القصص : الآية ٥٦ .

(٥) سورة يوسف : الآية ١٠٣ .

(٦) سورة التوبة : الآية ٨٠ .

الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١﴾

وكان ﷺ كلما طلب منه أن يدعو عليهم دعا لهم وقال :
« رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » .

هذا يوم الفتح الأعظم وجحافل المسلمين ترحف على مكة من كل جانب ، وقريش في هلع وفزع ، فيقول لهم الرؤوف الرحيم ، ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟ فيقولون أخ كريم وابن أخ كريم ، فيقول : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وفى وضح هذه الحقائق الناصعة يأبى أعداء الاسلام (وما هم إلا أعداء أنفسهم لأنهم زجوا بها في نية الضلال ، وأوردوها موارد التهلكة والتلف ، وكتبوا لها الخلود في نار جهنم ﴿ كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ (٢)

يأبى هؤلاء الأعداء الا أن يُسَوِّدُوا صحائفهم بادعائهم أن الاسلام انتشر بالسيف ؟ وكيف وقد رأيت أن حروب الاسلام دفاعية لا هجومية وكيف وقد نهى الله عن الاكراه في الدين ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (٣)

وكيف وقد أمر المؤمنون أن يبروا من لم يقاتلوهم في الدين ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٤)

(١) سورة الأنعام : الآية ٣٥ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٥٦ .

(٤) سورة الممتحنة : الآية ٨ .

وكيف وقد أمر المسلمون بالتزام العدل مع اعدائهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيَّ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١)

وكيف وقد عاملوا البلاد المفتوحة على هذه القاعدة لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولم يستبح أحد من الولاة الاعتداء على الأنفس والأموال وقصة عمرو بن العاص وابن القبطي وحكومة عمر بن الخطاب فيها دليل عملي على مبلغ حرص المسلمين على العدل والمساواة .

وكيف وقد أحلّ لنا أن نتزوج من أهل الكتاب ، وأن نأكل من طعامهم وشرابهم تأكيداً لمعاملتهم على مقتضى العدل والبر ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (٢) .

وكيف وقد عاشت الأقليات مع المسلمين في أمن وعدل ومساواة برغم ما أصاب المسلمين من أحداث أشعل نارها الغدر والحقد والحسد والعصبية كما حدث في الأندلس والحروب الصليبية ولم يدفع الانتقام المسلمين إلى أذى الأقليات . لأن الله حرم العصبية على المسلمين وبرأهم من الظلم وبرأهم من الانتقام . ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (٣)

(١) سورة المائدة : الآية ٨ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٥ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٦٤ .

حقائق النصر

إن النصر هدية ربانية ، وهبة سماوية ، تنزل به الملائكة على المؤمنين ، وأن لهذا النصر حقائق يُشَدُّ عليها بناؤه وقواعد ترسى بها أوتاره .

[الحقيقة الأولى]

إن النصر من عند الله وليس من عند سواه

لقد كانت غزوة بدر الكبرى معرضاً لهذه الحقيقة ، وتثبيتاً لها
لقد جاء النصر ربانياً غامراً ، فلا عَدَدٌ وَلَا عُدَدٌ ، إن ملائكة
السماء تهبط بالنصر من عند الله ، ليزداد المؤمنون إيماناً وأن معيتهم
مع الله تغني عن كل معية ، ولا يضرهم شيء في الأرض ولا في
السماء .

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ، وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ . إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ
آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ
فَرِيقٍ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ .

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾

كتب الله على نفسه أن ينصر رسله والمؤمنين في الدنيا والآخرة .
﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ ﴾ (٢)

وأن يكون لهم الغلب على أعدائهم : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا
وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٣) .

فالنصر حقيقة واقعة لا تتخلف عن المؤمنين لأنه وعد الله
﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ (٤) فإذا تخلف المؤمنون عن إيمانهم
تخلف النصر عنهم .

ليس النصر من أدوات الحرب ومدمراتها ، فتلك آلات الحرب
التي صنعها الله . وأودع كل شيء سرا من أسرارهِ وآية من آياته
﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (٥) .

إن الله أودع الذرة تلك القوة التي حيرت الألباب ، وأدهشت
العقول .

وفي كل شيء له آية « تدل على أنه الواحد » .
وأودع الله النار قوة الاحراق ، وأودع الحديد بأسه الشديد

(١) سورة آل عمران : الآيات ١٢٣ - ١٢٦ .

(٢) سورة غافر : الآية ٥١ .

(٣) سورة المجادلة : الآية ٢١ .

(٤) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٥) سورة المؤمنون : الآية ١٤ .

وإذا شاء أمر النار أن تكون برداً وسلاماً كما أمرها لنجاة إبراهيم .

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾^(١)

أراد الله أن يكون هذا درساً عملياً لمن يتوهمون أن النصر من صنع أيديهم ، وليس من صنع ربهم خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير « فمن ظن أن النصر بيده ، فليصنع له نارا وثبت من الأرض حديداً » ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . أَنَّكُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾^(٢) إذا كانت مواد الحرب وآلاتها صناعة ربانية فليس لعبد من عبادته أن يدعى القدرة عليها ، وينسى سلطان ربه الذي بيده ملكوت كل شيء .

قد يقول قائل : « إن زمن المعجزات قد إنتهى ونحن معه ، ولكن رب المعجزات حي لا يموت ، يجبر ولا يجار عليه » .

وعد الله المؤمنين النصر ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) ولكن نصر الله لعبده مشروط بنصر العبد لربه ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾^(٤)

ولا يكون ذلك إلا بكمال الطاعة . والاعتراف بالربوبية حتى يكون العبد أهلاً للنصر والا كان الأمر عبثاً والحياة تضييعاً

(١) سورة الأنبياء : الآيات ٦٩ - ٧٠ .

(٢) سورة الواقعة : الآيات ٧١ - ٧٣ .

(٣) سورة الروم : الآية ٤٧ .

(٤) سورة محمد : الآية ٧ .

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (١)

إن هذه الحقيقة تقوم على أمور تستلزمها وتقتضيها ، فما كانت الطاعة إلا ربطاً على قلوب المؤمنين ، وتطهيراً لأرواحهم ، وتصفية لنفوسهم وسنة العدل أن يغلب القوى الضعيف ، والصالح الطالح ، يشير إلى هذا المعنى قول الحكيم العليم ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَمَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٢)

إن المؤمن وقد رباه الله أعلى تربية ، وأدبه فأحسن تأديبه صار أهلاً لهذه القوة السماوية . وإذا أحس العدو القوة في جانبه مستمدة من الغدر والعدوان ، وظن أن النصر سيتخلف عن المؤمنين ، كانت الآية الكبرى فجاء النصر دافقاً غامراً من السماء تهبط به آلاف مؤلفة .

إن نزول الملائكة بالنصر على هذه الصورة تأكيد لهذه الحقيقة وتبشير للمؤمنين ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ (٣)

إذ أن ملكاً واحداً بطرف جناحه قادر على تحطيم الأرض بما فيها ومن فيها ، وللملائكة أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ

(١) سورة آل عمران : الآية ١٦٠ .

(٢) سورة الأنفال : الآية ٦٥ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٢٦ .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى
وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١﴾

ومن تبشير المؤمنين أيضاً بعث الرعب والفرع في قلوب الكافرين
وفي الحديث « نصرت بالرعب مسيرة شهر » .

هذه قصة عبدالمطلب مع إبرهة تجده يقصر سعيه على ما في
مملكه وما يقع تحت سلطته ، فيطلب الأبل ، ولو طلب غيرها لكان
واهماً ، أطلب من ابرهة الرجوع عن الكعبة وقد جاء لهدمها وقد
أعد عدته ، وجند جنده ، وجيش جيوشه وعبدالمطلب غني عن
السخرية به عندما يطلب العسير أو المستحيل وماذا يصنع وقد أبى
عدو المسلمين ذلك عدو الله وعدوه إنها الحكمة البالغة التي نطق بها
عبدالمطلب وقد دُهِشَ إبرهة لما توهم من اشتغال عبدالمطلب بالحقير
دون العظيم وبالتافه عن الجليل .

لم يستهن كما توهم إبرهة ، ولكنه فوض أمر البيت لصاحبه
يدافع عنه ، وهو القوى العزيز ، وحميته وهو الواحد القهار وإذا
بالطير تترجم هذه الحكمة التي نطق بها عبدالمطلب « الأبل لى ،
وللبيت رب يحميه » اقرأ معي وصف هذه المعركة السماوية ﴿ أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ .
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ
كَعَصْفٍ مَّا كُولٍ ﴾ (٢) .

(١) سورة فاطر : الآية ١ .

(٢) سورة الفيل : الآيات ١ - ٥ .

[الحقيقة الثانية]

أن الله يعطى نصره من أحب ومحرمه من أبغض

إذا كان النصر هدية ربانية ومنحة سماوية ، فلا بد أن تصادف أهلها وتصيب محلها ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١) .

إن العبد لا يزال يرقى في عبادة ربه ويسمو في طاعته حتى يكون ربانياً تتحقق له الولاية من ربه ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٢)

إن أحباب الله لا يعرف الخوف ولا الحزن طريقه إلى قلوبهم إذ الخوف ألم النفس من توقع المكروه والحزن ألم النفس عند وقوع المكروه والمؤمن لا يخشى مكروهاً لأنه في حياطة ربه وفي ثقة حين يتلبه ليضاعف له الأجر ، ويرزؤه ليكافئه على الصبر ﴿وَلَتُبْلَوُنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (٣)

ففي الصبر دواء لكل خوف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٥ .

(٢) سورة يونس : الآيات ٦٢ - ٦٤ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٥ .

بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١﴾

ولم يخاف المؤمن ؟ وعلام يحزن ؟ وهو قد باع نفسه وماله لربه أعظم بيع وأرجحه ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢)

إن الإنسان في هذه الدنيا يتجمع عليه حرص على رزقه وعمره ، وأمرهما بيد الله ، قلة وكثرة ، وطولاً وقصراً ، ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْوَاهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٣)

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤)

ثم أودعها الله خزائن الغيب ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ عَذَابًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿ (٥)
 إن هذا الرزق الذي تنزل به ملائكة السماء كل ليلة تنادى هذا رزق فلان ، وهذا رزق فلان ، لا يزيد ولا ينقص ، بزيادة السعي ونقصانه ، فكم عاجز مثر ، وحول مكذ ، ولو كان الرزق موقوفاً

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٣ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٣) سورة هود : الآية ٦ .

(٤) سورة الأعراف : الآية ٣٤ .

(٥) سورة لقمان : الآية ٣٤ .

على السعى ليتناسب معه كلما زاد سعى المرء زاد كسبه ، وكلما نقص سعيه نقص كسبه ، ولكن واقع الحياة يلقي الناس درساً في أن السعى شيء والرزق شيء آخر « والله در الإمام الشافعي حيث يقول » :

ولو كانت الأرزاق تجري مع الحجا
هلكن إذن من جهلهن البهائم

ولكن السعى مفروض على العباد يحاسبون على التقصير فيه ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ ^(١) فمن سعى وترك أمر رزقه لله فقد توكل على الله والله يحب المتوكلين ، ومن ضيع السعى فقد تواكل ، والسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . إِنَّا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعَبْنَا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَاتِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ^(٢)

إن الله جلت قدرته كشف عن هذا المعنى لعباده ، بالحجة القاطعة والآية الناصعة في قوله الكريم : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ . لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمَغْرُمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ . أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ . نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا

(١) سورة النجم : الآيات ٣٩ - ٤١ .

(٢) سورة عبس : الآيات ٢٤ - ٣١ .

(٣) سورة الواقعة : الآيات ٦٣ - ٧٤ .

لِّلْمُقِيمِينَ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١﴾
وهذه قصة أصحاب الجنة ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ .
وَلَا يَسْتَنْتُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ .
فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ . أَنْ أَعُدُّوا عَلَيْنَا حَرَثَكُمُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢﴾

وهذا قارون آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى
القوة فلما بطر النعمة ، وكفر بالمنعم عليه ، « خسف الله به ويداره
الأرض » . ليكون عبرة ومثلاً للآخرين إن الله قادر على أن يرزق
خلقه ولو لم يكن لهذا الخلق حول ولا قوة ، كما يرزق الحشرة في
الصخرة الصماء ، وهو قادر على أن يرزق الطير تغدو خماسا وتروح
بطائنا ، لا تدخر قوتاً ، ولا تجمع مالا ، وقد أمر ضعاف الدواب
مع قلة حاجتها وضعف مئونها - أن تدخر وتجمع كما أوحى إلى
النحل ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ .
ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ
بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

إن حياة الانسان تمثل هذه الكائنات ، فمن الناس من يدخر كما
يدخر النمل والنحل ومنهم من يعيش كما يعيش الطير ، وهكذا
تتراءى لك جميع الصور « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

(١) سورة الواقعة : الآيات ٦٣ - ٧٤ .

(٢) سورة القلم : الآيات ١٧ - ٢٢ .

(٣) سورة النحل : الآيات ٦٨ - ٦٩ .

إن السعى على الرزق لا يستلزم الخوف ولا الحزن ، لأن السعى وسيلة ليست مضمونة والرزق مضمون على الله ، والله يعطى الدنيا من أحب ومن أبغض ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نُمْلِي لَهُمْ خَيْرًا لِنَفْسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١)

وقد يكون المال والولد للعذاب فى الدنيا والآخرة : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٢)

إن المؤمن الذى يفقه أمر رزقه وأمر عمره وإذا عمق فى نفسه هذا الفقه الناصع المشرق لن يعتوره من أمرهما خوف ولا حزن أبداً ، وإذا طرد الله الخوف والحزن من قلوب عباده غمرتها السعادة ونأت عنها الشقاوة ، وفى ذلك قوتها وسلامتها ، فتفيض على الأجسام قوة وعافية .

لقد كان المؤمنون أقوى الناس قلوباً وأصحبهم أجساماً وأطولهم أعماراً ، لأن الايمان دواؤهم ، يعالجون به أجسامهم كما يعالجون أرواحهم ، فلما أشرقت الأرواح بنور الايمان بعث هذا النور فى الأجسام الدفء والقوة . فمن سلم روحه صح جسمه ، ومن صح جسمه صلح عقله ، فان الحياة فى الروح قبل الجسد ، كما أن الوطن فى الدين قبل البلد .

يقول جل شأنه فى تعظيم المال : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ

(١) سورة آل عمران : الآية ١٧٨ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٨٥ .

قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعَفَهُ لَهُ ﴿١﴾

ويقول : ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ ﴿٢﴾
﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ
الْجَنَّةُ﴾ ﴿٣﴾

إن الله واهب المال فكيف يقترض من الناس ؟ إن الله جعل
المنفقين في سبيله في درجة عالية لأنهم يعطون ولا يأخذون ، ولا
يعطى الا الموسرون فكأن هذا الأسلوب البارع تعظيماً لشأن اليسار
والموسرين ونبلا من شأن العاجزين الخاملين - كما عبر عن ذلك قول
الرسول الأمين « اليد العليا خير من اليد السفلى » وقوله « على كل
مسلم صدقة » وقوله « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من
أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ولقد قال لمن أراد أن يتصدق
بكل ماله « لأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة
يتكففون الناس » ولقد قال لعمر بن العاص وقد رغبه في احدى
الغزوات : « نعم المال الصالح في يد الرجل الصالح » « إن الاسلام
يجعل الآخرة غاية المؤمن والسعادة فيها هدفه الأوحد والدنيا طريقه
إلى الآخرة » الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر » ويقول « الدنيا سوق
قامت ثم انفضت ربح فيها من ربح وخسر فيها من خسر إن السعى
للآخرة يضمن سلامة السعى في الدنيا » ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ
الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٥ .

(٢) سورة الحديد : الآية ١٨ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١١١ .

فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿١﴾

أما الذين يقصرون سعيهم على الدنيا وحدها فالله يدعهم وسعيهم ينالون أو يحرمون ولا نصيب لهم في الآخرة ﴿١﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمِيتُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢﴾

وعلى هذا المنهج يتحدد معنى الزهد في الاسلام ، وقد ضل فيه المسلمون ضلالاً بعيداً إن الزهد زهد الواجدین لا زهد العاجزين ، فمن جمع المال ثم زهد فيه فأنفقه في سبيل الله ، ولم يسخره لشهواته : فهو الزاهد حقاً ، أما من قصر عن الكسب وهو يدعى الزهد في الدنيا فهو من المستضعفين الذين توفاهم الملائكة ظالمی أنفسهم ﴿١﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٣﴾

لقد عظم الاسلام شأن الانفاق ، ولا انفاق من غير مال ، وما ذاك ألا ليصرف المسلمين إلى الغاية من السعى والمال . إن الغرائز البشرية تميل إلى الانحراف بالمال عن منهج الدين ، فيأخذ في

(١) سورة الشورى : الآية ٢٠ .

(٢) سورة الاسراء : الآيات ١٨ - ٢١ .

(٣) سورة النساء : الآية ٩٧ .

الطغيان حيناً ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾. أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْصَى ﴿١﴾ .
 ويغلب عليها البطر وكفر النعمة حيناً آخر كما فعل قارون حيناً
 قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
 مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ
 ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٢)

وقد يدفعه إلى الكفر كصاحب الجنة : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا
 رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
 بَيْنَهُمَا زَرْعًا . كُلْنَا الْجَنَّتَيْنِ ءِثَّتْ أَمْثَلُهَا وَلَمْ تَطْلُم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا
 خِلَالَهُمَا نَهْرًا . وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ
 مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا . وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن
 تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا . وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي
 لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا . قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ
 بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ (٣)

ومع هذا فيأتى القرآن صريحاً في تفضيل الغني الذي أنفق ماله
 على الفقير العاجز ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ
 وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤)

ليس في الاسلام بلادة ولا كسل . ولا قعود عن الكسب

(١) سورة العلق : الآيتان ٦ - ٧ .

(٢) سورة القصص : الآية ٧٨ .

(٣) سورة الكهف : الآيات ٣٢ - ٣٧ .

(٤) سورة النحل : الآية ٧٥ .

والعمل باسم الدين والدين براء من كل ذلك .
وإذا كان قعود العاجزين والمستضعفين عن الكسب خروجاً على
الاسلام ، فأشد منه وأعظم قعود القادرين عن العمل والسعى ،
كما شاع ذلك في أغنياء المسلمين الذين أغرقوا أنفسهم في الترف
والنعيم ، وأسبَدَتْ بهم الشهوات ، وسخرتهم المفاصد ، فكانوا
حرباً على أنفسهم وعلى أمتهم وعندى أن الفقير المتعطل أهون شراً
من الغنى المتكاسل ، لأنَّ الأول يجعل همه في التفتيش عن العمل ،
وأما الآخر فيجعل همه التفتيش عن المفاصد والشهوات وإذا كان
تعطيل الفقير خيانة اجتماعية ، فتعطل الغنى يحمل ثلاثة جنایات :
جناية على نفسه وجناية على ماله وجناية على أمته ، إن المستعمرين
رسموا لنا أوضاعاً في الحكم والقانون والاجتماع جرت أغنياءنا إلى
التعطل ، ثم نصبوا لهم الشراك ليأكلوا أموالهم أكلاً ويحصدوا
أرواحهم حصداً ، وهل بعد ذلك بقاء لأمة أو حياة لمجتمع . إنه
التخدير السياسى الذى يمهّد للاستيلاء على البلاد سياسياً
واقتصادياً ... هذا هو هدف المستعمر ، فإذا تم له ذلك في تحصين
مطامعه لبقاء فريسته تنخبط في حبالها وتضطرب في شباكها وفي
نطاق هذا الوعى تستطيع أن تدرك سر تشجيع المستعمرين للملاهى
المحرمة ، وحرصهم على إفساد فراغ المثقفين من أبناء الأمة ،
وحرصهم كذلك على افساد التعليم فيها منهاجاً ، ونظاماً ليتم لهم
افساد الجهاز الحكومى بعامة لتعيش الأمة في دائرة مفرغة من
الفساد الذى يعجزها عن الخلاص منه إذا ما تسنى لها أن تفلت من
الحصار السياسى الذى فرضته عليها . إن حياتنا الآن تعبير

عن مدى ما جلب المستعمر فى حياتنا العامة وقد جلا عن بلادنا وتركنا أحرارا فى حياتنا السياسية ، ولكننا عاجزون عن ادراك حريتنا الأصيلة فى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية بعدما عبث المستعمر بأوضاعنا ، وجعل هذا العبث جزءاً من اعتقادنا حتى سرنا نؤمن بضرورة بقاء هذه الأوضاع ، وإن تعارضت مع الدين لقد صرنا أقرب إلى الشك فى التعاليم الدينية منا إلى الشك فى تلك الأوضاع .

يظن كثير منهم أن الربا جزء لا يتجزأ من النظام الاقتصادى لقد كان الاسلام والمسلمون فى أوج عظمتهم ولهم اقتصادهم فلم يتكثروا على الربا لأن التعاون الروحى الذى بينهم سما بهم إلى منزلة الإيثار فضمن لهم سعادة روحية وقوة مادية . هذه جريمة الرنا وجريمة السرقة ، قد انصرف المسلمون عن الأخذ بما قرره الاسلام لها من عقوبة ، حتى انتشرا فى بلادنا انتشارا أزعج حياتنا فامتألت المستشفيات بضحايا الجريمة الأولى ، وامتألت السجون بضحايا الجريمة الثانية ، وعقوبة الاسلام كفيلة بحماية الناس من الجريمة وحمايتهم من العقوبة معاً .

وليس هناك تشريع أعدل من تشريع يبق الناس الجرائم أولاً ويقيم العقوبات ثانياً وقد ضربت لك مثلاً رجلين ، وقف أحدهما على مدخل طريق وفرض عقوبة الأعدام لمن يحاول المرور فيه ووقف الثانى على مدخل آخر وجعل عقوبة المرور غرامة مالية ، فإذا يحدث ؟ لا يمر أحد من الطريق الأول فلم يعد أحد ، وأما الثانى فيسير فيه خلق كثير وتوقع عقوبة الغرامة على عدد كبير .

إن العقوبة شرعت في الاسلام لمنع الجريمة أولاً ولمنع العقوبة ثانياً .

أما القوانين الوضعية فتشجع الجريمة فتكثر العقوبة . إن نظرة واحدة إلى محاكمنا وسجوننا تكفيها مئونة التدليل ، وتغنيها عن الحجة والبرهان .

[الحقيقة الثالثة]

أن النصر لا يتوقف على قلة أو كثرة

إن النصر وهو هدية الله لأوليائه المؤمنين لا يتوقف على قلة أو كثرة إنما يتوقف على الولاية التي هي من الله حب ورحمة ومن العبد طاعة وإخلاص « يَا عَبْدِي أَطِيعْنِي تَكُنْ رَبَّانِيًّا » .

يقول المولى (جلّ وعلا) في أثر هذه الولاية وأسبابها : « ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلىّ ممّا فرضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحبيته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يسعى بها ولئن سألتنى لأعطيته ولئن استجارنى لأجيره » الحديث .

فإذا ضمن العبد حب الله له فهو في حياضته يمنحه القوة إذا شاء ويمنحه الغنى والسلطان « بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير » فلا يضر العبد ضعفه أو فقره ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

(١) سورة يوسف : الآية ٢١ .

ولهذا يقول الحكيم الحليم ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ^(١)

لقد تحقق هذا الوعد الصادق في غزوة بدر الكبرى وكان عدد الكفار أضعاف عدد المؤمنين ، مع توافر عددهم وعنادهم ولكن الله كتب على نفسه أن ينصر المؤمنين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٢)

فأنزل إليهم الملائكة تحارب في صفوفهم ، يراهم الكفار فتمتلئ قلوبهم رعباً وفزعاً ولا يراهم المؤمنون حتى لا يتكلوا أو يتركوا الأخذ بالأسباب المادية ، وقد يجرهم هذا إلى ترك الأخذ بالأسباب الروحية فان فعلوا ذلك خسروا الدنيا والآخرة ، وقد غفل المؤمنون عن الأخذ بالأسباب المادية في غزوة أحد عندما ترك الرماة أماكنهم فوق الجبل وخالفوا أمر الرسول (ﷺ) عندئذ مكثوا العدو من الفرصة وانزلوا بالمسلمين هزيمة نكراء وقتلوا عدداً كبيراً من كبار الصحابة ومنهم سيد الشهداء حمزة عم النبي (ﷺ) لقد صور القرآن هذه المعركة ، وبين مداها وآثارها ، ووضع أيديهم على الخطئة منها ، حتى تكون وجيزة ينتفعون بها في حروبهم التالية ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا آرَأَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٩ .

(٢) سورة الروم : الآية ٤٧ .

عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١﴾

لقد كانت هزيمة تأديبية ، ففيها الصبر العملى على ما يصيب الانسان فلا يقابله بالحزن والأسى وانما يقابله بالصبر والعمل ، ومنها حسن الظن بالله مهما نزل من المصائب لأن الشيطان يتحين هذه الفرصة ليدخل منها إلى القلوب يوسوس بالشرور ويوحى بالغرور ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (٢) وما ذاك الا لأن الله جلت حكمته جعل حياتنا الدنيوية مسرحاً للفتنة والابتلاء .

﴿الْم . أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣)

ويقول جل شأنه ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٤) ويقول جل شأنه ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (٥) وما ضر القلة يوم بدر ولم تغن الكثرة يوم حنين

(١) سورة آل عمران : الآيات ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) سورة الحج : الآية ١١ .

(٣) سورة العنكبوت : الآيات ١ - ٣ .

(٤) سورة التغاين : الآية ١٥ .

(٥) سورة الفرقان : الآية ٢٠ .

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ
عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ . ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ (١)

بدأت غزوة أحد بالنصر فلما جاءت المعصية ذهب النصر وحلت
بهم الهزيمة وأما يوم حنين ، فقد بدأت بهزيمة لأن العجب والخيلاء
شاعا في قلوبهم وهما أيضاً من أمراض النفس التي تستلزم التأديب .
فلما كانت الهزيمة بدءا كانت المعصية بدءا ، ثم تاب الله على المؤمنين
فأكرمهم بالنصر لقد تخلفوا عن الله فتخلف عنهم بنصره حتى يعودوا
إلى بهم فيعود إليهم نصره ورحمته ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى
يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (٢)

لقد ظل النصر ظللاً للمسلمين يلزمهم أينما ساروا ، لا يفارقهم
أبداً حتى نقضوا عهدهم مع الله ، وفرطوا في جنب الله ، ونسوا
الطاعة ، ووقعوا في المعاصي بعد ما دانت لهم الدنيا . وغرهم بالله
الغرور وتحصنوا بِعُدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم
أولئك هم الفاسقون .

لقد طمع فيهم أعداؤهم . واستبدلوا بالخوف منهم الجراءة عليهم
﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ (٣)
لقد حرص أعداؤهم على الحيلولة بينهم وبين العودة إلى أسباب

(١) سورة التوبة : الآيتان ٢٥ - ٢٦ .

(٢) سورة الرعد : الآية ١١ .

(٣) سورة الإسراء : الآية ٥ .

قوتهم ، وما لقوتهم سبب ولا لغزتهم نسب الا بالرجوع إلى ربهم .
والعمل بدينهم .

لقد رسم العدو الخطة واحكمها ، فكر ثم فكر وقدر . فأقام
الحواجز لينال من المسلمين في بعدهم عن دينهم ومعصيته ربهم
أضعاف ما يناله بقوته وعدته فكان له ما أراد . نشر الشهوات
ليجذب عبادها مستعيناً بالشيطان ، فهو ظهيره ونصيره في حرب
المسلمين والقضاء على مجدهم وعزتهم ، فتهاقت المسلمون على
مصارعهم وكتبوا بأيديهم هزيمتهم وحفروا قبورهم بسيوفهم ، وحق
فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ
بَعْدِهِ ﴾ (١)

إنَّ المسلمين وقد ادركتهم الحسرة على ما فرطوا في جنب الله ،
وما ضيعوا من أسباب مجدهم وقوتهم ، وما خانوا من أمانة آبائهم
واجدادهم الذين ملكوهم هذا التراث الغالي والتاريخ الحافل
بالبطولة والسيادة في المجال الروحي أولاً وفي المجال المادى ثانياً إنَّ
المسلمين عندئذ أخذوا ينفضون عن أنفسهم هذا الغبار المتراكم
الذى غطى على أرواحهم وختم على ابصارهم واسماعهم فوجدوا
الأعباء الفادحة والعقبات المتراكمة وجدوا الفساد تغلغل في أحشاء
الأمة وامتزج بدمائها ولحومها ، وجدوا مخلفات الأعداء من الرذائل
تملأ البر والبحر كيف لا وقد لبث الأعداء بيننا دهوراً ينفثون
سمومهم ، وينشرون أدواءهم ، حتى طبعوا الأمة بطابعهم فلما جلوا

(١) سورة آل عمران : الآية ١٦٠ .

عن البلاد بقيت آثارهم متغلغلة في قلوبنا ودمائنا لقد صنعوا من أبنائنا جيلاً يؤمن بمدىنتهم ، ويعيش على عاداتهم واخلقهم ونهل من كئوسهم . لا فرق بينهم وبين اعدائهم .

ولأنهم يريدون الاستئثار بما كان يتركه العدو من أموال ومنافع فلا ضير أن يكونوا على قطيعة مع الله متخلفين عن طاعته وعبادته ، ملازمين للردائل ، أعداء للفضائل ولا بأس عليهم ، فقد تحرر وطنهم وجلا عنه المستعمر ، وإن لم تجل حباله ومكايدته .

الا فلتعلم هذه الأمة ألا قوة لها الا برها ، ولا سلطان لها الا بدينها ولا خير فيها الا بالطاعة والعبادة فان فرطت في شيء من ذلك ذهبت قوتها ، وفقدت هيبتها وهانت مع نفسها وعلى أعدائها .

أما في نفسها فقد فشلت فيها أدواء الأمم من فساد وفرقة وانقسام أما اعداؤها فقد تربصوا بهم الدوائر يغيرون على بلادهم ، وينقصون أطرافهم وسلبونهم أمنهم وراحتهم ﴿ وَالْوَأَسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا . لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا . وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (١)

عقيدة قائمة على التوحيد ، وطاعته قائمة على العبادة فاذا اجتمعت العقيدة الصحيحة والعبادة الخالصة هبط عليهم النصر من السماء ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (٢)

(١) سورة الجن : الآيات ١٦ - ١٨ .

(٢) سورة محمد : الآية ٧ .

[الحقيقة الرابعة]

إن المسافة التي بين المسلمين وبين النصر كالمسافة التي بينهم وبين الإيمان

فإن كانوا إلى الإيمان أقرب فهم إلى النصر أقرب ، شبرا ومترا وذراعا وذراعا «وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» لقد أدرك المسلمون الأولون هذه الحقيقة فكانوا على حذر واختراس ، ولا تعرف المعصية طريقها إليهم ، لا يأمنون مكر الله ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١)

وكان (ﷺ) يقول «إني أخوفكم من الله» وكان أبو بكر يقول «لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى رجلى في الجنة» كان الرسول (ﷺ) يريهم على الحذر ، ونهاهم عن التواكل .
فيقول : «اعلموا أنه لن يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» .
ويقول : «إنَّ الرجلَ ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار» .

ويقول : «إنَّ الرجلَ ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلا قليل فيعمل بعمل أهل النار فيكتب من أهل النار» .
وكما حذرهم من الغفلة عن الله حذرهم من الرياء فإنه يحيط الأعمال كما تأكل النار الحطب ، ومن أجل ذلك جعل النية أصلاً

(١) سورة الأعراف : الآية ٩٩ .

للعمل يصلح بصلاحها ويفسد بفسادها « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » حتى جعل الاسلام الجزاء بمجرد النية « إذا هم العبد بالحسنة ولم يفعلها كتبت له حسنة وإن فعلها كتبت له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ولقد جاء القرآن بالتحذير من الرياء في العبادة ﴿ قَوْلُ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ^(١) كما نهاهم عن المن والأذى والرياء في الصدقة فقال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(٢)

يفصل بذلك اعتبار النفاق شرا من الكفر ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ ^(٣)

لما أراد الله أن يطلعنا على أحوال المؤمنين والكافرين والمنافقين وصف كلا من المؤمنين والكافرين بآيات قليلة ، أما المنافقون فقد وصفهم بعدة آيات وضرب لهم الأمثال فقال تعالى : ﴿ الْم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ

(١) سورة الماعون : الآيات ٤ - ٦ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٦٤ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٤٥ .

لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى
أَبْصَارِهِمْ غَشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾

ثم أخذ يصف المنافقين فقال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا
بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ
اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا
تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ
النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا
يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شُيَاطِينِهِمْ
قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا
رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا
فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا
يُبْصِرُونَ . صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ
فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءِذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ
حَذَرِ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ
كَلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ
بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

إن سعادة الأمم وصلاحها يقاس بمقدارها في قلوب أبنائهم من

إيمان ، وان شقاء أبنائها وفسادهم يقاس بمقدار ما فى نفوسهم من نفاق .

لقد نكب المسلمون آخر الزمان بما ملأ قلوبهم من ألوان النفاق ، حتى لقد فطن أعداؤهم لهذا الداء العيى ، فقرروه فى قلوبهم ، وغذوه بمكرهم وختلهم واطهروا عجزهم عن نقلهم من الايمان إلى الكفر ، فعملوا على نقلهم من الايمان إلى ما هو شر من الكفر وهو النفاق ، فى كل شىء ، فى عقائدهم وعباداتهم ، ومعاملاتهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ تَمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا . فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١)

هذا لون من النفاق شاع فى البلاد الاسلامية التى استبدلت

(١) سورة النساء : الآيات ٦٠ - ٦٥ .

بشرع الله قوانين استعاروها من اعدائهم ليقضوا على البقية الباقية من دينهم ، ولينقضوا دعائم مجدهم وعزهم وليتعاونوا مع الشيطان على اختلال أمورهم وفساد اخلاقهم ، كيف توفق بين الايمان بالله وبين الكفر بأحكامه وشرائعه ، كيف توفق بين دعوى الطاعة والعمل بالمعصية ، لقد صار المسلمون يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ (١)

إن الله حرم الجرائم الخُلُقِيَّة والمادية فلماذا تحملها قوانين المسلمين ؟ وان الله وضع لها زواجر فلماذا أهملها المسلمون ؟ أليست الحمر والزنا والسرقة من الجرائم التي حرّمها الله ؟ فلماذا تبيحها قوانين المسلمين ؟ في بلاد الاسلام ، ولماذا تعمل على ترويجها بمختلف الوسائل والأساليب ؟ وتجعل العاكفين عليها أهل الثراء والغنى لو خلى الله بيننا وبين أعدائنا ليكيدوا لنا ليلا ونهارا ، وليعبثوا في بلادنا فسادا ما استطاعوا أن ينالوا منا كما نلنا من انفسنا . هذا والله تناقض عجيب ؛ لا يتجمع ايمان وكفر في قلب مسلم أبداً وانما يجتمعان في قلب منافق أثيم ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ .

لقد كان المسلمون وكان الايمان يملأ قلوبهم يقيسون ايمانهم بمقياس الطاعة والعبادة ، وكلما نزلت بهم نازلة أو تنازعوا في أمور وردوها إلى الله وإلى الرسول ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ

(١) سورة البقرة : الآية ٨٥ .

تَأْوِيلًا ﴿١﴾

فما بالنا الآن نتخلف عن الطاعة ونصرف عن العبادة ، حتى صارت الكبائر واقترافها مما يعظم شأن المسلم في أمته ويجلب له الثراء العريض والغنى الوافر وما على الدولة إلا أن تحرس ثراه وتبارك غناه ؟

لقد سَلِطَ علينا أَعَاؤُنَا يَنَاشُونَنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، يَأْكُلُونَ أَمْوَالَنَا وَيَنْهَوْنَ خَيْرَاتَهَا يَمْدُونُ خَصْمُونَنَا بِالسَّلَاحِ وَالْعِتَادِ نَكَايَةً بِنَا وَكَيْدًا لَنَا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَتَحْنُ فِي مَعَاهِدَةٍ دَائِمَةٍ مَعَ الْغَفْلَةِ وَالْمَعَاصِي كَأَنَّمَا سَدَّتْ مَسَامِعُنَا وَرَانَ عَلَى قُلُوبِنَا ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢)

لقد أَبْطَأَ النُّصْرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي أَحَدِي الْغَزَوَاتِ فَفَتَشُوا فِي نَفْسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَفْتَشُوا فِي سِلَاحِهِمْ وَعِقَادِهِمْ ، وَفَكَّرُوا فِي أَمْرِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَفَكَّرُوا فِي أَعْدَائِهِمْ ، وَتَحَسَّسُوا مَوَاطِنَ الْإِيمَانِ فَانْهَارَ مَنَازِلُ النُّصْرِ - فَانْضَيَعُوا الْإِيمَانَ ضَيَعُوا النُّصْرَ ، فَكَرُّوا طَوِيلًا وَتَدَبَّرُوا مَلِيًّا ، حَتَّى نَهَضَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، فَكَشَفَ عَنِ السَّرِّ وَادْرَكَ الْحَقِيقَةَ وَصَاحَ صَيِّحَةً مَدْوِيَّةً هَا قَدْ عَرَفْتَ السَّبَبَ ؟ قَالُوا مَا هُوَ ؟ فَقَالَ لَقَدْ نَسِينَا السَّوَاكَ عِنْدَ الصَّلَاةِ ، فَقَامُوا جَمِيعًا إِلَى السَّوَاكِ وَاسْتَاكُوا فَهَبَطَ عَلَيْهِمُ النُّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٤٣ .

بربك ماذا نفعل وقد أبطأ النصر عنا دهوراً طويلاً لأننا نسينا السواك عند الصلاة؟ أم نسينا الله ونسينا الصلاة ، نزل جبريل على رسولنا الأمين فقال له اقرأ فقال وما اقرأ قال اقرأ ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ (١)

فقال (ﷺ) أوتضيع أمتي الصلاة يا جبريل قال نعم يؤخرونها عن أوقاتها ولدرهم عندهم أحب إليهم من صلاتهم .

إن النصر لا بد أن يتخلف عن المنافقين تحقيقاً لوعده الله ووعيده ، لأن الله وعد ، المؤمنين النصر وأ وعد المنافقين الخزي في الدنيا وفي الآخرة العذاب الأليم ، ولن يخلف الله وعيده ﴿ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إِنَّ التَّكِينِ فِي الْأَرْضِ لِلْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٢)

وقد أمرنا الله أن ندعوه ليستجيب لنا ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ولكن الدعاء فقد خاصيته ، وأصبحنا ندعو فلا يستجاب لنا لأنه دعانا فلم نستجب له ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٣)

(١) سورة مريم : الآية ٥٩ .

(٢) سورة الحج : الآية ٤١ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

وفى الحديث النبوى : « رَبِّ اشْعَثْ اغْبِرْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ
لَأَبْرَهُ » فليذكر المسلمون ربهم ودينهم وكتابهم ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ
ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى . قَالَ رَبِّ
لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا . قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا
فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ (١)

(١) سورة طه : الآيات ١٢٤ - ١٢٦ .

الإيمان

إذا كان النصر هدية الله لعباده المؤمنين كان علينا أن نرسم الطريق إلى الإيمان حتى يتهيأ لنا الوصول إلى النصر «ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»
إن هذا الإيمان يسير في ثلاث شعب :

شعبة العقيدة وهي :

إحسان الصلة بين العبد وربّه ، فيوجب لله كل كمال ويتزهره عن كل نقص ، هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، القديم الذي لا أول له والباقي الذي لا نهاية له ، السميع البصير ، عليم بذات الصدور ، لا تخفى عنه خافية ، وهو على كل شيء قدير .

وشعبة العبادة :

ومناطها الطاعة ، وغايتها التربية الدينية والرياضية الروحية فاذا كانت العقيدة بعثاً للقوى الروحية فالعبادة انتفاع بهذه القوى ، ولا عبادة بلا عقيدة كما لا عقيدة بلا عبادة ، فالعبادة أثر العقيدة ومظهرها فمن اعتقد فقد عبد ، ومن عبد فقد اعتقد .

إن الناس يعيشون في ظلال عقائدهم ، فان سلمت العقيدة
صحت العبادة ، وان فسدت العقيدة فسدت العبادة .

لقد سجد الجاهليون للشمس والقمر فدعاهم الله أن يسجدوا
لخالق الشمس وخالق القمر ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ (١)

لقد عاب الله عليهم أن يحتجوا بمحاكاة آباءهم وأجدادهم
﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (٢)

وهذه محاولة إبراهيم للكفار بعد أن حطم أصنامهم ﴿ قَالُوا
أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا
فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ
الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ
يَنْطِقُونَ . قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
يَضُرُّكُمْ . أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . قَالُوا
حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَهِتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا
وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . وَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ (٣)

واستمع إلى هذا النداء الحكيم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ
الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ

(١) سورة النحل : الآية ١٧ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٢٢ .

(٣) سورة الأنبياء : الآيات ٦٢ - ٧٠ .

أَتَمَرَّتْ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾

إن القرآن يخاطب العقول بالحجة والبرهان حتى تكون العقائد راسخة مستقرة فالخالق يستحق العبادة من المخلوق ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا فكاك للعبد من رتبة العبودية فهو موصول بربه ، مفتقراً إليه بدءاً ، ووجوداً ، وانتهاء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (٢)

ما أشد افتقارنا إلى ربنا ، ما شاء وما لم يشأ ، كان ولم يكن ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَاكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٣)

إن هذا الخلق آية كبرى كيف ينصرف الانسان عن دلائل حكمتها ، ويغفل عن وضوح حجتها .

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٤)

وهذا الخلق تحدى العلى الكبير المشركين فقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ

(١) سورة البقرة : الآيات ٢١ - ٢٢ .

(٢) سورة فاطر : الآية ١٥ .

(٣) سورة الإنفطار : الآيات ٦ - ٨ .

(٤) سورة الحجر : الآيات ٢٨ - ٣١ .

ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾

في نطاق هذا السمو الروحي تصفو العقيدة ، وتشرق وتتخلص النفس من ظلمات الجهالة والضلالة ، وترقى في سلم العزة درجات . إن الأرواح إذا تخلصت من العقائد الفاسدة ولاذت بالحقائق الباهرة ، بزغت شمس العقل في سمائها الصافية ، فأضاءت جوانب النفس ، وامحت ظلمات الضلال ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ﴿٢﴾

كم من عقائد فاسدة استبدت باصحابها ، فأوردتهم موارد الهلكة والتلف وألقت بهم في غياهبات الشقاء والهوان . إن وراء كل عقيدة انحطاطاً من السلوك ، وألواناً من الانجهاات . فهذه عقيدة البعث والجزاء ثواباً أو عذاباً ، ذات أثر فعال في سلوك الناس وأخلاقهم ، انها تدفعهم إلى الاستهانة بالدنيا ، والرغبة في الآخرة وتصرفهم عن متاع العاجلة إلى لذائذ الباقية ، أنفسهم منهم في عناء ، والناس بينهم في راحة ، قد براهم الخوف يرى القداح ، كأن شهيق جهنم وزفيرها في آذانهم تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وتقول قد خالطوا ولقد خالطهم أمر عظيم فهم في النهار علماء حلماء أتقياء أبرار ، وفي الليل صافون لأقدامهم يخشعون لربهم في صلاتهم ، يتلون آيات الله ، فان مرت بهم آية فيها تخويف

(١) سورة الحج : الآيات ٧٣ - ٧٤ .

(٢) سورة النور : الآية ٣٥ .

ارتعدت لهولها فرائضهم ، وإن مروا بآية فيها تبشير فرحوا بفضل ربهم .

ما جرأ أهل المعاصي على مبارزة ربهم إلا لوهم أصاب عقيدتهم وعلة أصيبت بها نفوسهم .

إن أفعال العباد تنبعث من عقائدهم ، كما تنبعث الأشعة من مصدر الضوء تقوى بقوته وتضعف بضعفه إن الكفار ليشهدون على أنفسهم يوم القيامة بأنهم عطلوا قواهم المنبثة من أرواحهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾^(١) إذا فسدت العقيدة أظلم الروح ، وإذا أظلم الروح انطفأت أشعة العقل ، فلا سمع ولا بصر ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾^(٢)

وإذا ذهبت أشعة العقل لم تغن عنه مفاتيحه شيئاً ، وما مفاتيحه إلا الخواص ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾^(٣) . ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٤)

أما الشعبة الثالثة :

فهي المعاملة ، وقد جعلها الله اعظاماً لشأنها ، وتقديراً لآثارها - الدين كله « الدين المعاملة »

(١) سورة الملك : الآية ١٠ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٧٢ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٨ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٧ .

فاذا كانت العبادة صورة صادقة للعقيدة فالمعاملة أثر للعقيدة أولاً ، وثمرة للعبادة ثانياً .

إن قوة العبادة مستمدة من قوة العقيدة والمعاملة مستمدة منها معاً ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾^(١) فالأصل الثابت مثل العقيدة الراسخة ، والفرع الساق مثل العبادة الصحيحة ، والأكل الطيب مثل المعاملة الطيبة .

لو أن انسانا وقف أمام سور شاهق ، ثم اعتقد اعتقادا راسخا بأنه وراء هذا السور ما تشتهى الأنفس وتلد الأعين ، لما تردد لحظة في أن يلقى بنفسه وراءه ليظفر بالنعيم القيم . ولو أنه اعتقد عكس ذلك وظن وراءه الأسود والسباع - لولى الأدبار ، ولاذ بالفرار . إن المعاملة أثر من آثار العبادة أولاً . ومظهر من مظاهر العقيدة ثانياً .

فقوة الساق في الشجرة دليل على متانة الجذور ، وسلامة الثمار نتيجة للقوة في السوق والجذور .

إن معاملات الناس كالثمار منها الحلو ومنها المر ومنها الحامض ومنها الحريف ومن الأشجار ما تجرح بشوكها ، ومنها ما يبث الرائحة الطيبة والمنظر الجميل والأشكال البديعة ، والألوان الفاتنة ، ومنها ما لا تحمل شيئاً من ذلك إنما هي أعواد سامقة ينتفع الناس بنخشبها

(١) سورة إبراهيم : الآيتان ٢٤ - ٢٥ .

ومنها ما تكون للظل ، ومنها ما يكون للزينة فتبارك الله أحسن الخالقين .

لقد حصن الاسلام المعاملة بقواعد راسخة تحميها وتصورها ، ففرض على المسلمين الأخوة « وكونوا عباد الله اخواناً » ثم شرع من العبادات ما يرى هذه الأخوة وينميها كالصلاة والزكاة وهما عماد الأخوة وأساسها المتين ، فانهما منهج الحب في الله ، والحب في الله أعلى درجات الأخوة وفي الحديث « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف به في النار »

ثم فرض التعاون على البر والتقوى ، وهو ثمرة الأخوة الصادقة ، ثم دعا المسلمين إلى الايثار وهو أعلى مراتب الاخاء والتعاون .

إذا احكمت هذه الدعائم ، انتفى عن المسلمين نقائصها . فلا فساد ولا تدابر ولا تقاطع . كما لا ظلم ولا إيذاء ، ولا غش ، ولا خيانة ، ولا سرقة .

لقد جمعت مقتضيات - الأخوة ونقائصها في هذا الحديث « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه » فإذا ضاعت ثمرة العبادة وذهب أثر العقيدة فلا ايمان ، وإذا فقد الناس إيمانهم انحلت عقائدهم وانهارت عبادتهم ، وفسدت معاملتهم .

من أراد أن يرشد الناس إلى التعامل الصحيح فهذا هو النهج

القوم ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه ، وجنى على أمته .
 ليس التعامل الصالح رهناً بقوانين نستعيدها من الغرب أو
 الشرق ، وليس التعامل الصالح مستمداً من النظم والمؤسسات
 التي رسمتها الدول الأجنبية لاصلاح شئونها وتنظيم حياتها فلم تصل
 الا إلى الشقاء في دنياها وأخرها وانتشرت المنكرات والموبقات في
 حياتها الاجتماعية ، وامتلاأت حياة الغرب قلقاً واضطراباً ، وكلما
 استبد بهم الشقاء في حياتهم الخاصة والعامة لجأوا إلى ستر ما يعانون
 من ضيق وضنك إلى الوسائل المادية تطفىء حرارة آلمهم فهم ترزهم
 الأعناء وبلاء ﴿ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ
 لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴾ (١)

إن هذه المقدمات التي وضعناها بين يديك تعينك على أن تدرك
 أسباب تأخر المسلمين في وقتنا هذا وفساد معاملاتهم . الذي هو أثر
 لتضييع عباداتهم ، وما تضييع العبادة الا مظهر لتضييع العقيدة
 لطول ما مر على هذه الأمة من الحق والاحق ، حتى ظن المسلمون
 بالله الظنون . لقد جرفتهم المادية الغربية في تيارها تصرفهم عن
 دينهم . وانستهم تاريخهم ومجدهم . خسروا الدنيا والآخرة ، وذلك
 هو الخسران المبين باعوا الآخرة بالدنيا فما ربحوا تجارتهم وما كانوا
 مهتدين (٢) .

(١) سورة النور : الآية ٣٩ .

(٢) انظر الآية رقم ١٥ من سورة البقرة والآية رقم ١١ من سورة الحج .

أركان الإيمان

يقوم الإيمان على أركان أربعة : هى أساس بنائه ، وأصل بقاءه ، ومصدر قوته .

الركن الأول - التقوى :

إن التقوى أقوى أثراً ، وأعظم شأنًا فى بناء الإيمان ، ولا تستطيع تصور الإيمان مجرداً عن التقوى ، فهى روح الإيمان ، ووقاية المؤمن من الانحراف عن دينه والخروج من شريعته ، ووقايته من غضب الله وعذابه بالتزام الطاعة ، والانضواء تحت راية العبودية .

إن التقوى أصل العزة والشجاعة ، فمن خاف الله تطهر من المعاصى ، ومن خاف الله آمن الخوف من غير الله ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ وأخشوني ﴿

ومن كان هذا شأنه كان أشجع الناس وأعز الناس ، لأنه يقدم على ما أمر الله لا يخشى فى الله لومة لائم ، وهو يرتل قوله الحكيم ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ ^(٢) إنه وثيق الصلة بربه ،

(١) سورة التوبة : الآية ٥١ .

يرجو ثوابه ، ويفرح بفضله ورحمته ، سلم قلبه من الخوف وسلم قلبه من الحزن ، فليس لها مكان يشغلانه ، فهو مشغول بربه عن الناس ، مشغول بآخرفته عن دنياه ، مشغول بما يبقى ، وليس مشغولا بما يغنى .

إنه في حيازة ربه ، ولا سلطان عليه . بل له السلطان على كل شيء وكل شيء مسخر له .

إذا كان الناس يتفاوتون في مستوياتهم المادية فهم في مستوياتهم الروحية أشد تفاوتاً وانهم ليتفاوتون يوم القيامة بحسب تفاوتهم الروحي في الدنيا ، ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾^(١)

إن الانسان إذا ارتفع به مستواه الروحي صار ربانيا ، عمر قلبه الايمان ، وأشرقت روحه بنور الله ، وفي الحديث القدسي : « ما وسعني أرضي ولا سمائي وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن » . إن التقوى زاد المؤمن ، حتى يلتق الله وهو عنه راض .

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾^(٢)

إن الدين يوجه الغرائز خيراً وجهه ، فلا يدعها تتخبط في دياجير الحياة ولا يدع الناس ينفقونها على غير هدى ، حتى تستقيم أمورهم ، وتنظم حياتهم - وما الفساد الا اختلال الغرائز ،

(١) سورة الواقعة : الآيات ٨ - ١٢ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٧ .

فتصرف الخوف إلى ما لا يخاف ، وتصرف الخوف عما يخاف ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ^(١) ، فمن سلك بغرائزه السلوك الرشيد فقد اهتدى إلى ما يريد ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ^(٢)

إن جميع الجرائم البشرية لا تخرج عن هذا النطاق النفسى ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ^(٣)

إن التقوى تفتح لصاحبها مغاليق الأمور ، وتضع بين يديه مفاتيح الأرزاق ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ ^(٤)

وكيف تضيق بأهل التقوى الموارد والمصادر وهم مكلوون بالعناية الربانية ملحوظون بالرعاية السماوية .

لن يستطيع الوهن أن يدب إلى قلوبهم ، لأنها قلوب ربانية ليس لشیطان سلطان عليها ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ^(٥) لقد صارت قلوبهم أوعيته للحق ، والحق لا يزح

(١) سورة الشمس : الآيات ٩ - ١٠ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ١٥٣ .

(٣) سورة النازعات : الآيات ٣٧ - ٤١ .

(٤) سورة الطلاق : الآيات ٢ - ٣ .

(٥) سورة الحجر : الآية ٤٢ .

أبداً ومحلاً للنور الالهي فلا يطفأ أبداً . وإن الرزق بيد الله جل وعلا ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (١)

وكيف لا يرزق الله أوليائه ولا ينعم على أحبائه ، وقد باعوا أنفسهم لله ، يعطيهم ويشتري منهم ، ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (٢) فالفضل منه وإليه ، إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ وهو على كل شيء قدير إن الناس فيما يصالحون من شئونهم الدنيا يتهافون على ربط أنفسهم بالعظماء من الناس ، كالمملوك والحكام ، والأغنياء ، ليستفيدوا من عظمتهم ، ولينعموا بالقرب منهم وقد تكون عظمتهم وهمية أو عظمة جوفاء ، أو عظمة كاذبة ، ومع ذلك فهم يحرصون على مخالطتهم وينشطون في طاعتهم ولا يقصرون في خدمتهم ولا يجدون الضعف والارهاق ، أو قد ينالهم الظلم والبطش ، ومع ذلك فهم مؤمنون بأن الخير ما جرت به أيديهم ، وأن الحق والهدى ما نطق به أفواههم ، ولا يحرص الناس في الدنيا على شيء حرصهم على ابتغاء الحياة والسلطان من العظماء ذوى الجاه والسلطان ولكنهم مع ذلك يتكبرون طريق العظمة الصحيحة ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣)

إنها الحيوانية أو البهيمية تلصق صاحبها بالرغام ، فيهبط مستواه الروحي حتى يكون كالحيوان الأعجم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ

(١) سورة هود : الآية ٦ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٣) سورة الملك : الآية ٢٢ .

أَضِلْ سَبِيلًا ﴿﴾

ومن عجائب الانسان أنه قادر على التشبه بالحيوان ، أو الشيطان ، أو الملائكة فان لبي دواعي الغريزة الأرضية وانصرف عما سواها . فهو الحيوان الأعجم ، وان خالط ذلك ظلم أو فساد فهو الشيطان المارد ، وان عزف عن الشهوات الأرضية وصعد في سلم حياته الروحية ، فهام بالفضائل ، وصد عن الرذائل فهو الملك الطاهر .

إذا كانت التقوى فرجاً من الضيق ، وسعة في الرزق ، فانها مفتاح العلم ﴿﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ ﴿﴾ فصدر العلم بيد الله جل وعلا ﴿﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴿﴾ انه العليم الحكيم ﴿﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿﴾ واذا أحب الله عبده آتاه العلم والحكمة ﴿﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿﴾ (١)

إن الصفاء الروحي وقد ترى على التقوى يشع النور في سماء العقل ، والعقل وعاء العلم والانبياأ أصغى الناس عقلاً ، وأقواهم روحاً ، وأصدقهم نظراً وأسلمهم حكماً على الأشياء ، وهل العلم غير ذلك ؟ ﴿﴾ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿﴾ (٢)

لقد جعل الله التقوى ميزان الحياة ، فاذا أمر بالتعاون جعله

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٩ .

(٢) سورة النساء : الآية ١١٣ .

معصوماً بالتقوى فيقول ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ^(١) فهو تعاون نافع خير لا تشويه شائبة من ظلم أو فساد .

وإذا أمر بالصدق جعل مدخل الأمر به التقوى فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ^(٢)

وإذا أمر بالصلح بين المتخاصمين أردف الأمر بالتقوى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ^(٣) .
وإذا أمر الحاكم بالعدل اتبعه بالتقوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٓأَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ^(٤)

وإذا نهى عن مفسد الأخلاق من سوء الظن والتجنس والغيبة أردف ذلك بالتقوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلُ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ^(٥)
وإذا حذرنا الله من فتنه المال والولد أكد التحذير بالأمر بالتقوى : ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ^(٦)

-
- (١) سورة المائدة : الآية ٢ .
(٢) سورة التوبة : الآية ١١٩ .
(٣) سورة الحجرات : الآية ١٠ .
(٤) سورة المائدة : الآية ٨ .
(٥) سورة الحجرات : الآية ١٢ .
(٦) سورة التغابن : الآيتان ١٥ - ١٦ .

إن من ضيع هذه الدعامة دعامة التقوى لم يستطع أن يبنى شيئاً من قواعد الايمان ، وإذا فقد الايمان دعامته الأولى وقاعدته الكبرى ، ما كان من الايمان فى شىء يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . وإذا أظلم هذا الجانب من القلب اضطربت الحياة ، واصيبت بالعمى والضلال : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ ^(١) .

الركن الثانى - الطاعة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ^(٢) الطاعة ترجان الايمان ، فلا طاعة بغير ايمان ، ولا ايمان بغير طاعة ، وما شرعت العبادة الا للتدريب على فضيلة الطاعة .

إن الطاعة فى الاسلام مبصرة مشرقة ، لا يشوبها عمى ولا ابهام ، ولا يخالطها اقرار أو اكراه وهى لله أولاً ، ولرسوله ثانياً ، ولأولى الأمر ثالثاً ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ ^(٣) إذ الرسول مبلغ عن ربه ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ ^(٤)

كما أن الرسول معصوم فيما يبلغ ، تجب طاعته على كل حال

(١) سورة الحج : الآية ٤٦ .

(٢) سورة النساء : الآية ٥٩ .

(٣) سورة النساء : الآية ٨٠ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١)
 قوله الصدق والحق ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ
 يُوحَىٰ﴾^(٢) فلم يأت الرسول بشيء من أمر الدين الا عن وحى
 يوحى ، وقد اشتمل هذا الوحي على كتاب الله أولاً وسنة نبيه
 ثانياً ، وكلاهما من عند الله .

أما طاعة ولى الأمر فهى مستمدة من طاعة الله وطاعة الرسول .
 لأنه لا يصدر إلا عن كتاب الله وسنة نبيه ، فكأن طاعته طاعة الله
 ولرسوله لأنها داخلة فيما جاء عن الله وعن الرسول ويوضح ذلك
 قول الرسول (ﷺ) : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وقوله
 « السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية فان أمر بمعصية فلا سمع ولا
 طاعة » .

ومن جهة أخرى فلا يلى أمر المؤمنين إلا وال مؤمن ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ
 اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(٣) فلا ولاية لغير المؤمن على
 المؤمنين « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

وقد أكدت الآية هذا المعنى بالخطاب فى قوله : « منكم » أى
 من المؤمنين والمؤمن فى نفسه يلتزم العمل بأوامر الله . واجتناب
 نواهيه ، وقد أشار إلى هذا المعنى الخليفة الأول « أطيعونى ما أطعت
 الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » ثم رسم لهم دستوراً
 عملياً لعلاقته بهم ، وعلاقتهم به إذ يقول : « إن أحسنت

(١) سورة الحشر : الآية ٧ .

(٢) سورة النجم : الآيتان ٣ - ٤ .

(٣) سورة النساء : الآية ١٤١ .

فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني .

وعمر رض الله عنه يقول : « فإن رأيتم في أعوجاجاً فقوموني »
فيقول له أحد رعيته : « والله يا عمر لو وجدنا فيك أعوجاجاً
لقومناه بحد سيوفنا » فيقول عمر : « الحمد لله الذي جعل في الأمة
من يقوم عمر بحد سيفه » قال له ذات يوم رجل من المسلمين :
« اتق الله يا عمر » فإلتفت إليه آخراً ويقول له : « أتقول ذلك لأمر
المؤمنين : » فيصرخ فيه عمر ويقول : دعه يقولها ، فلا خير فيكم
إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نقبلها منكم » لأن هذه هي
القيادة الرشيدة التي تربي الأمة على الشجاعة ولا تحشى في الحق
لومة لائم .

لقد ادعى الغربيون أن الحرية والشجاعة الأدبية من صنع الثورة
الفرنسية ، فأين حريتهم وشجاعتهم من هذا الهدى القويم ؟
إن هذه الشجاعة لازمت المسلمين في عصور قوتهم وعزتهم ولم
تتخلف عنهم إلا في عهود من تخلوا عن ربهم ، وفرطوا في دينهم ،
ولهم في هذا الباب العجب العجيب مما حفلت به كتب الأدب
والتاريخ لا يرهبهم طغيان الحاكم وجبروته إذ أن الرسول الأمين
يقول إن أفضل الشهداء رجل دخل على امام جائر فأمره ونهاه ،
فقتله فدخل الجنة . هذا حطيط الزيات يدخل على الحجاج فيسأله
الحجاج عن رأيه فيه ، فيقول له حطيط : شر خلق الله في أرضه
فيقول وما رأيك في أمير المؤمنين ؟ فيقول هو شر منك لأنه ولاك
علينا فيأمر الحجاج بطرحه على الأرض وأن يغطي جسمه بالبوص
ثم يربط البوص بالحبال ، ثم يترع كل واحدة فتخرج بالقطعة من

اللحم ، ومازالوا يفعلون به كذلك حتى فارق الحياة ، ثم يأمر الحجاج بطرحه فى السوق حتى يراه الناس فتمتلئ قلوبهم هلعاً وجزعاً ، فيستمر الأمر فى اذلال المسلمين واستعبادهم .
 إِنَّ الاستشهاد فى سبيل الله من آثار الطاعة ، وبهذا كانت هذه الفضيلة مدرسة الفدائية الرشيدة ، فدائية فى الحق وللحق ، وليست فى الباطل وللباطل .

إِنَّ المسلمين لم يعرفوا الطريق إلى الطاعة العمياء أبداً لأن الرسول لم يدع الا على بصيرة ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ^(١) وإذا كانت الطاعة عمياء جاء العمل أعمى ، وجاءت القلوب فى عمى وفى ضلال .

وكما طهر الاسلام المسلمين من الطاعة العمياء طهرهم من الطاعة الباطلة وهى التى تتعارض مع ما جاء به الدين ، ومثل هذا النوع يفسد النفوس ، ويطارد الفضائل ، ويحمى الرذائل وعندئذ تفقد القوانين سلطانها ، ويتلقى الشعب على يديها دروس النفاق ، والمكر والعبث وليس بعد ذلك شر وفساد .

بهذا تدرك مبلغ الشطط الذى تقع فيه تلك الحكومات التى تلزم الشعب بقوانين تتعارض مع مقدساتهم الدينية ، فهم يحاولون التخلص منها ، والهرب من طاعتها وتنفيذها .
 اللهم لا طاعة إلا لك ، ولا طاعة إلا لرسولك ، ولا طاعة لأحد من خلقك ، إذا شط عن طاعتك ، وتجاوز دينك ،

(١) سورة يوسف : الآية ١٠٨ .

وتحاكم إلى الطاغوت ﴿ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ (١) .

اللهم اننا جنود دينك ، وحماة كتابك وسنة رسولك ، اللهم قونا بالحق ، وهيبنا لنصرتك ، ووفقنا لطاعتك ، وجنبنا معصيتك ، فبئس الخلف من الطاعة المعصية ، ومن الهداية الضلالة ، ولا تجعلنا من المنافقين الذين يعرضون عن دينك ، ويصدون عن سبيلك إنك نعم الولي ونعم النصير .

الركن الثالث - الصبر :

إذا كانت التقوى سياج الايمان ، وكانت الطاعة تلبية لدواعيه . فان الصبر احتمال لما يعترض سبيل الطائعين : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٢)

إذا كانت التقوى تقتضى الطاعة ، فان الطاعة تستلزم الصبر ، فان التكاليف الشرعية محوطة بالمشاق ، مقرونة بالمتاعب ، وإن الحياة الأرضية قائمة على المغالبة ، دافعة على التنازع : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

(١) سورة النساء : الآيتان ٦٠ - ٦١ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٤٣ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

إن هذا التنازع ملموس في حياتنا المادية : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(١) كما ان التنازع يستلزم العمل ، والعمل تعترضه المشاق والمتاعب مادية كانت أو روحية ، وفي ذلك ألم النفس ، والنفس تنفر مما يثقل عليها ولو كان فيه خيرا ونفعها ، والشيطان من ورائها يحرضها على تجنب المشاق ، ويأخذ بيدها إلى اللذات والمتعة فتنسى مصيرها ، وتعرض عن غاياتها . وهنا تظهر الحاجة إلى الصبر عما يحب المرء ، وعلى ما يكره ، فان أحب ما يضره أو ما ينفعه ، فذلك هو الهوى «حَقَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَالنَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» وبجال الصبر هنا رحب فسيح ، متعدد الجوانب فان الشهوات لقاح الشيطان ، وبذور المعاصي ، إن نفقها الانسان بلا وعى ولا تدبر ، وإن أحسن سياستها وقيادتها كانت خيرا هداه الله إليه ، وإن نفرت وجمحت ، أو استبدت بصاحبها ، أهلكته وأردته. إن أكثر الجرائم تنضوى تحت هذا الجانب ولا وقاية فيها الا بالصبر في مجالها ، وتحمل المشاق في ميدانها ﴿إِنَّ الْنَفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(٢)

إن الغرائز لتتراكض في مجال الشهوات ، ولا بد من كبح جماحها ، والوقوف في طريقها فمن استطاع ذلك فهو من الصابرين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣)

(١) سورة البلد : الآية ٤ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٥٣ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٥٣ .

إن هذه المعية قوة القوى ، وضمان النصر والغلب ، فمن غفل عنها ، أو تناساها تقاذفته أمواج الحياة ، وغالته غوائلها .
 أما الجانب الآخر من المشاق التي تعترض حياتنا فهو جانب المكاره ، وما أكثرها في هذه الدنيا ﴿ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢)

هذه هي طبيعة الوجود الأرضي القائم على المنازعة والمغالبة من جانب الانسان فهو ينازع في الأرض يشقها ويحرثها ثم يزرعها ليستخرج كنوزها ، ويتفجع بخيراتها ، فان صبر على متاعها ، وتحمل مشاقها ، فتحت له كنوزها ، وأمدته بقوتها وسلطانها والا أدركه العجز والضعف فتحدر إليه الآلام النفسية لوقوعه في هذه الهوة السحيقة ، وهنا يجد من مشاق الآلام أضعاف ما يجد من متاعب الصبر ومشاقه .

إن من طبيعة المنازعة والمغالبة ، أن ينفق المرء القليل لينال الكثير ، فان انفق أكثر مما ينال كان ذلك خسرانا تنفر منه النفوس ، لأن ذلك طريق الهلاك والدمار وان نال أضعاف ما أنفق كان ذلك بيعاً راجحاً ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِّبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ (٢)
 إن الصبر ضمان البيع النافع ، والربح المحقق .

وبهذا كان الصبر ركنا من أركان الايمان ، ومدخلاً من مدخله ان الصبر هو عنصر المقاومة في المجال العملي ، كما ان التقوى مصدر

(١) سورة البقرة : الآية ١٥٥ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١١ .

القوة ، والطاعة هى الصلاحية للانتفاع بهذه القوة ، ومثل ذلك السيارة تخزن القوة الكهربائية فى محركها ، كما تخزن النفس التقوى فى داخلها ، وتحفظ بسلامة أجهزتها ، واستعدادها لتلقى هذه القوى . كما تستعد النفس لتلبية دواعى التقوى لسلامة حواسها الداخلية والخارجية ، فإذا اندفعت السيارة بقوة محركها ، و سلامة أجهزتها ، كان لا بد من وقاية تحتمل بها منازعة الطريق ومقاومته فلا بد من سلامة الاطار وسلامة الهيكل ، رفعاً للاحتكاك الأرضى والصراع الهوائى . وكذلك النفس إذا اندفعت للعمل مزودة بالتقوى والطاعة - لزمّت لها قوة الاحتمال لما يعترضها - دفعاً للصراع الداخلى الذى ينبعث من الغرائز الثائرة ، والميول المتأججة ، ودفعاً للصراع الخارجى الذى يعترض طريق العمل من غرائز الآخرين وميوهم ، وهو المعبر عنه بشياطين الانس والجن .

حرب الشهوات

لعل من أهم أغراض الصبر مغالبة الشهوات ، وتوجيهها الوجهة الصالحة ، وحبس الضار منها حتى يتقى الناس شرها ، ويسلموا من آثارها .

لقد شرعت القوانين لتنظم طريق الشهوات ، وتكبح جماحها إذا هاجت واثارت ، ووضعت العقوبات زواجر وصوارف ، فان رجحت كفة الشهوة على كفة العقوبة تهافت الناس عليها لأنهم فى مجالها يربحون ، وان وجدوا العقوبة أنكى وأخزى ، انصرف الناس عن الشهوة لأنها خسران مبین .

لقد جاءت الأديان تنظم الشهوات خير تنظيم ، وتتيح للناس الفرص السعيدة للانتفاع بشهواتهم فى عاجلهم وآجلهم .

لقد شاء الله أن يكرم بنى آدم فأعطاهم من الشهوات ، ما لم يعط غيرهم ، فلأرواحهم شهوات ، ولعقولهم شهوات ، ولأجسامهم شهوات ، ولكن الناس يظنون أن المادة نطاق الشهوة فيتكالبون عليها . ويتزاحمون فى ميدانها . ولم يعرف التاريخ عصراً عبدت فيه الشهوات كما عبدت فى عصرنا هذا ، حيث العلم المادى فى أوج قوته ، وعظيم سلطانه فهو يمد الناس فى كل يوم بجديد

يقوى سلطان الشهوة ، ويفرض سلطانها وجبروتها .
ولكن سوء استعمالها ، والانحراف بها عن جارتها يفسدها ،
ويذهب بمتعها ، ويصبح غصصا يتجرعها عيها الأذلاء ، وأسراها
الأخساء ، فهم فى شقاء دائم ، وعذاب أليم من حيث لا
يشعرون .

هل رأيت إلى السكارى عبيد الرجس كيف يشقون
بخمورهم ، ويشقى الناس بفسادهم كما شقواهم بأنفسهم ،
فيدورون فى حلقة مفرغة من الآلام والمآسى ، هل رأيت إلى ذلك
الشقى الذى طلب إليه أن يختار : إمّا الخمر وإمّا الزنا . وإمّا القتل
فلما اختار الخمر لأنه توهم أنها أخف الثلاثة ضرراً - زنا ، وقتل ؟
وإليك شهوة النساء التى زينت للناس ، كيف حمّتها الشرائع
الساوية ، وهيات للناس المتعة الصحيحة والانتفاع الكامل ،
جعلت لها حدوداً مرسومة ، ومعالم واضحة فشجعت الرجل على أن
يكون له زوج تختص به ويختص بها ، فلا تضره ، ولا يضرها . فى
رباط روحى يفيض عليهما بالمتعة واللذة ، ثم يكون من وراء ذلك
ثمر روحى ومادى ممثلاً فى البنين والذرية هل يفضل الزنا عن الزواج
فى هذه الحالة إنه سم هذه الشهوة وعدوها اللدود ، إنه يفسدها
ويعكس آثارها إنه يقطع الروابط الروحية فى المجتمع ، ويضع
مكانها الحسة ، واللؤم ، والدناءة ، ويزرع فى قلوب الناس
الكراهية ، والعداوة ، والبغضاء ، ويفقدهم الطمأنينة على
أعراضهم وشرفهم فيسودهم القلق ، وسوء الظن وهل بعد ذلك
شقاء !

هذه هي الآثار الروحية ، أما الآثار المادية ، فما أكثرها وأقبحها ، هذه الأمراض الخبيثة التي تطاردهم ، وهذه الأموال التي تغلت من أيديهم وعندئذ يهبط الضعف عليهم ، والضعف مركز الشقاء ومحور البلاء فلا نسل ولا ذرية ، ولو فعلت البهائم فعلهم لشتى الناس بحياتهم أيما شقاء .

لقد ظلم الانسان البهيمة فنسب الشهوة إليها ، إن شهوة البهائم ملك للإنسان تسخر لنفسه وخيره ، فما اشتته البهيمة الا لتلد ، فان وصلت إلى غايتها ، وأدركت مآربها فلا شهوة ، ولا ميل إلى الشهوة ، وان ذكر الحيوان ليعلم ذلك منها ، وأنها مستعدة للدفاع عن رسالتها حتى الموت ، فلا يحاول هذا الأمر ، وما شاء منها أن يحاول فالويل كل الويل .

إن تنظيم الشهوة في الحيوان وكل إلى غرائزه ، وتنظيم الشهوة في الانسان ترك إلى عقله ومن وراء عقله دينه ، ومن ورائها المجتمع وقوانينه وحكامه ، وقد تصنفت هذه المواقع وتدل هذه الحصون ، فتقع تلك الجريمة ، تحمل خسة البشر ، ودناءتهم وتعلق جهله وطيشه .

إن من وراء ذلك بلاء طويلا ، وشقاء مستمراً .
هل رأيت الحيوان يشكو الأمراض التناسلية كما يشكوها الانسان ؟ هل رأيت الحكومات جازعة لما أدرك الحيوان من هذه الأمراض فأنشأت المستشفيات لعلاج الذكور والاناث كما تفعل للآدميين ، حتى عجزت آخر الأمر واستسلمت للادواء تنخر في عظامها ، وتهلكيانهم هل من عودة إلى الدين نسترشد برشده ،

ونتهدى بهديه ، ونسير على نهجه ؟ هل نبني الركن الثالث من أركان
 الايمان وهو الصبر ، على ما نحب ، والصبر على ما نكره ؟
 إن فعلنا ذلك أوشك بناء الايمان أن يتم ، وأن يعلو شاهقاً يريح
 النفوس . ويسعد القلوب ويشرح الصدور ، ويضفي على حياة
 الناس سعادة ضلوا طريقها لأنهم التمسوها من غير أبوابها فلم يجدوها
 فناداهم الشقاء من بعيد ومن قريب ، فهم في تياره غارقون ، وفي
 عمايتهم يتخبطون وعن يقينهم غافلون .

الركن الرابع - العدل :

العدل ميزان الايمان ، ومقياس وجوده وقوته ، ﴿وَالسَّمَاءَ
 رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ
 بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾^(١)

إن العدل ضابط الأعمال ، يحفظها من الانحراف ، ويحميها من
 الضلال ، وهو حياة الفرد ، وسلامة المجتمع ، وصلاح الحكم .

عدالة الفرد :

وقد سماها القرآن استقامة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ
 اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢)
 وسماها الصراط المستقيم ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ

(١) سورة الرحمن : الآيات ٧ - ٩ .

(٢) سورة الأحقاف : الآية ١٣ .

وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴿١﴾

إن العدل أساس مملكة الفرد ، حتى لا تطغى الشهوة على العقل ، ولا يتمرد العقل على خدمة الروح ، فالروح سيد والعقل خادم ، والعقل سيد والشهوة خادم فمن جعل شهوته في خدمة عقله ، وعقله في خدمة روحه ، وروحه في عبادة ربه فهو المستقيم حقاً ، والسعيد صدقاً ، ومن جعل روحه في خدمة عقله ، وعقله في خدمة جسمه ، وجسمه في خدمة شهوته فهو الشقي حقاً ، الملعون في دنياه ، المعذب في اخراه هل رأيت إلى الضالين ، كيف تفرق بهم السبل فاختلت موازينهم ، وعميت بصائرهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٢)

حاشا لله أن يظلم عباده وقد خلقهم لعبادته ، وهياهم لطاعته ، ولكن الانسان لربه لكفور يكفر بنعمة ، ويجرؤ على مولاه : ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فأساء حمل الأمانة ، وضيع الرسالة : ﴿قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ﴾ (٣) وكفره عائد عليه ، وشره راجع إليه : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (٤)

إن الله تعالت حكمته ، لا تنفعه طاعة من اطاعه ، ولا تضره معصية من عصاه ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا

(١) سورة الأنعام : الآية ١٥٣ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٧٠ .

(٣) سورة عبس : الآية ١٧ .

(٤) سورة الزمر : الآية ٧ .

لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١﴾

إلى أولئك الذين يظلمون أنفسهم بتعطيل مداركهم ، وصرف حواسهم عن النظر الصحيح في ملكوت السموات والأرض أسوق إليهم حكم العليم الحكيم على سلوكهم ، وسوء مآلهم : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٢)

وإليهم أسوق التوجيه السماوي ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣)

وإليهم أسوق الادب الرباني : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (٤)

وإليهم أسوق وصف الله لعباده الذين أحكم العدل نفوسهم ، وأصلح أحوالهم ، فاستقامت أمورهم : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .

(١) سورة الكهف : الآية ٢٩ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٧٩ .

(٣) سورة الإسراء : الآيات ٦ - ٣٨ .

(٤) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

وَالَّذِينَ يَسْتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .
وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا
وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا
صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا . وَالَّذِينَ
لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ
لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُولَئِكَ
يُجْزَوْنَ الْأُجْرَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا
حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ
كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿١﴾ .

بمثل هذا تستقيم أمور الفرد في عقله وفي خلقه ، وفي عمله ،
وما الفرد إلا لبنة في بناء المجتمع فان صلح الفرد صلح المجتمع ،
ويفسد المجتمع لفساد أفرادهِ .

عدالة المجتمع :

لقد جاء الاسلام بأسمى المبادئ التي يقوم عليها مجتمع سليم

(١) سورة الفرقان : الآيات ٦٣ - ٧٧ .

ورسم الخطوط لبناء حياة اجتماعية صالحة ، مجتمع يقوم على البر والتقوى ، ويسعد بالحب والاخاء وبهذا تتحقق العدالة الاجتماعية ، التي لم تظفر بها أمة الا في ظلال الإسلام ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (١) لقد شرع الله من العبادات ما يكفل وحدة المجتمع ، وصيانة تلك الوحدة ، ففي الصلاة ربط للقلوب ، وتطهير للنفوس ، وفي الزكاة تأليف بين الأرواح ، وترميم للعلاقات وفي الحج تقرب وتوجيه ، وسعى بين يدي الله في توبة تصرح ، ورجوع إلى الله يستمد منه المسلمون العون ويطعمون في المغفرة والثبوة .

لقد أجهد الكتاب في الغرب والشرق أنفسهم في التفتيش عن العدالة الاجتماعية ، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، بل ملكهم الغرور فزعموا أنهم أتوا بما لم تستطعه الأوائل ، وظنوا الاشتراكية صراطهم المستقيم ، وما دروا أن في الاسلام نظما تزرى بنظمهم ، ومبادئ لا تصل إليها أوضاعهم ، إنها معجزات ذلك الدين القيم لو فكروا فيها لأخذت بأيديهم إلى الايمان واليقين وأنى لهم ذلك وهم بمدينتهم مفتونون ، وبماديتهم مخدوعون ، وكيف يصلون . وكيف يهتدون ؟

إن مبادئ الغرب والشرق تدور في فلك المادة بعيدة عن السمو الروحي ، أما المبادئ الاسلامية فأساسها الفضائل ، وغاياتها الأخلاق .

(١) سورة الفتح : الآية ٢٨ .

إن المجتمع الاسلامى عفيف ، حصيف ، لا يعرف المنكر طريقه
إليه ، ولا الفساد سبيله إلى أهله .

إن مباحاة الغرب ينظمه لم تكن الا يوم تخلف المسلمون عن
نظمهم ، فأزرت الأوضاع الغربية بأوضاع المسلمين ، ولكنها
تتلاشى إذا قورنت بمبادئ الاسلام ونظمه التى جهلها المسلمون
قبل أن يجهلها الغربيون .

إن الحاجز الذى بين الغرب ومدنية الاسلام هو قيام مدنيته
على المادة ، وبعدها عن الحياة الروحية ، ولو أنها كانت مدنية
روحية لدخل الغربيون فى دين الله أفواجا .

إن نظام التعاون نظام اسلامى أصيل قام على دعائم روحية
راسخة ، فمصدره الحب والاخاء وغايته الاثبات والوفاء ، والتعاون
المادى مظهر لهذا التعاون الروحى ، أما التعاون الغربى ، فالمادة
لحياته ومبدأه ، ولا يعرفون غاية أسمى من غايتهم ، ولا هداية
أصلح من هدايتهم . وحسبك أن تعلم أن الربا طابع تعاونهم ، وقد
تظهر التعاون الاسلامى من أرجاسه ، ونأى عن أوزاره ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ . فَإِن
لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِن تُبْتِغُوا فَلَكم رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (١)

وكيف يلوث المسلمون تعاونهم الروحى بجرائم الربا الفتاكة التى
تسلم أصحابها إلى الجنون والاختلال العصبى ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ

(١) سورة البقرة : الآيتان ٢٧٨ - ٢٧٩ .

الرَّبُّوْا لَا يَقُوْمُوْنَ إِلَّا كَمَا يَقُوْمُ الَّذِي يَتَحَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿١﴾ .

ليتهم وقفوا عندما ابتلاهم الله بدائهم ولكنهم ادعوا أن مصدر تأخر المسلمين هو تخلفهم عن نظام تعاونهم ، صدقوا فيما يتهمون المسلمين فان المسلمين تخلفوا عن نظمهم وتخلفوا عن نظم الاسلام في وقت واحد ومثلهم في ذلك مثل من كان له فضل ماء بالطريق ، وأبى أن يعطيك الماء بضمن لأنه يكره أن يبيع الماء ، ويأبى أن يعطيك بغير ثمن لأنه يدخره لنفسه ، فان أعطاك الماء بضمن كان كالغري الذي يتعامل بالربا ، ينفعك ويستغل حاجتك لأن قانون المادة يلزمه هذا الفعل ، ولو كان اسلامياً لأعطاك المال حبا في الاحسان ، ورغبة في الايثار لأن قانون الروح يقتضى هذا الفعل ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢) .

إن الرجل الذي أعطاك الماء بهذه الدراهم المحدودة ، خرج من المعركة لا له ولا عليه والذي لم يعطك الماء بضمن أو بغير ثمن خرج من المعركة بعد أن زدك بخبط وافر من العداوة والبغضاء ما يمتلىء

(١) سورة البقرة : الآيتان ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٢) سورة الحشر : الآية ٩ .

بها قلبك ، وتتمنى على الله أن يلجئه إليك ، ليعلم أثر الحاجة في نفس المحتاج وهو مثل المسلم الذى ضيع مبادئه وفرط في دينه ، وعاش هزيعاً بلا جسم ولا روح . أما الذى أعطاك الماء مؤثراً على نفسه ، فقد استعبدك بشربة ماء ، لأنك لا تقيس هذه الشربة بقيمتها المادية ، وإنما تقيسها بآثارها الروحية والقلبية .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان احسان

لا تعجب إذا وجدت التعاون الغربى يزرى بترك المسلمين للتعاون ، وهو يدعوهم إلى أن يتعاونوا على الصورة التى لم يعرف سواها ، ولم يتطلع إلى ما هو أسمى منها وأعظم فإن قلب صفحات التاريخ وجد تعاوناً مثالياً تلهث همته ولن تستطيع له رقياً أما المسلمون الآن فليسوا صوراً صادقة للإسلام . فعيوبهم عليهم لا على دينهم فإن رجعوا إلى دينهم سار الغرب فى طريقهم ، فعرف ربهم ودخل فى دينهم .

إن المجتمع الغربى مزرعة خصبة للمنكرات ، تشيع فيه الفواحش والآثام ، حتى ألقوها وألقتهم ، وأبوا إلا أن يرسموا لنا مجتمعاً كمجتمعهم يشيع فيه التحلل ، ويمتلئ بالفسوق والعصيان . لقد ادعوا أن مدينتهم خلصت العالم من الرق ، وكيف والرقيق الأبيض من صنع أيديهم ، وغرس نظامهم ، حتى انفت قوانينهم أن تعاقب على الزنا لأنه كما يقولون ضرورة اجتماعية ، اقتضتها مدينتهم ، ويسرتها نظمهم .

تَبَّتْ هذه المدينة الشوهاء ، وتَبَّ أولياؤها من الغربيين ، وغير الغربيين ، ولا أقول من المسلمين ، فليس مسلماً من أحل الحرام ، وحرم الحلال ، ورسم للأمة طريق الغواية والضلال ، ليصل بها إلى مهاوى الهلكة والدمار .

إن مجتمعاً يسوده الرجس ، ويملؤه الفساد ، هو المجتمع الجاهلى الذى حاربه الاسلام وطهر من أوزاره أمة العرب ، فاندفعت مشرقة ومغربة تنادى الناس للفضائل ومكارم الأخلاق ، سمت غاياتهم قسمت وسائلهم ، فما سلبوا ولا نهبوا ولا استعبدوا ولا استرقوا بل ساروا ليستغلوا الناس من ظُلم الحكام إلى عدل الرحمن ، ومن عبادة الأرباب إلى رب الأرباب .

أما الغرب وقد تجمعت له القوة ففى غفلة المسلمين فقد سار يشرب بمدينته الحافلة بالجرائم ، النازعة إلى الشهوة ، الداعية إلى الفجور والفسوق ، فسدت الغاية ففسدت الوسيلة ، لم يعرف التاريخ لهم مآثرة ، وإنما سجل عليهم ما نهبوا واختلسوا ، وما انتهكوا من أعراض ، خزى وعار ، وفضيحة وشنار . انها مدينة تعافها الذئاب . وتستحى من آثامها الوحوش الضارية والسباع الكاسرة .

على رسلكم أيها المفتونون بالمدينة الغربية من أبناء المسلمين الذين لا يعرفون من الاسلام قليلاً ولا كثيراً ، فكانوا حرباً عليه أكثر من أعدائهم ، وأكثر تصنيفاً له من خصومهم أضلهم الله على علم وختم على سمعهم وأبصارهم ، وأولئك هم الغافلون .

عدالة الحكم :

إن عدالة الحكم تقوم على عدالة القانون وعدالة الحاكم ،
والحاكم إماً مطبقاً للقانون وإماً مفسدٌ له .

إن سلطان القانون على الجماهير يقوم على عنصرين لا ثالث لهما :
عنصر رومى ، وهو الصلة بين نصوص القانون ، ونفوس الأفراد
وقلوبهم ، فيجعلهم يتقبلون نصوص القوانين ، ويقبلون على
طاعتها ، ويحرصون على احترامها ، ويشعرون فى ذات نفوسهم أنهم
يأثمون بمخالفتها وعنصر الالتزام ، وهو الجزء الذى يتهمه القانون
على مخالفته ، كالعضوية والتعويض والرد والفسخ والبطلان .

وعلى هذا صارت القوانين أنواعاً ثلاثة النوع الأول ما يقوم على
العنصرين الروحى والالتزامى وهذا النوع أصلح القوانين وأعدلها لأنه
يصلح سلوك الناس ظاهره وباطنه ، والشرعة الاسلامية خير مثل
لهذا النوع ، والنوع الثانى وهو ما يقوم على الالتزام وحده ، وهذا
النوع ضعيف لأنه لا يتصل بعقائد الناس ومقدساتهم ، والنوع
الثالث وهو ما يقوم على الالتزام ويتعارض مع عقائد الناس وفقد
سادتهم ، كأن يبيح لهم ما حرم عليهم ، أو يحرم ما أحل لهم ،
وهذا النوع يجد حرباً من الشعوب لعدم إيمانهم به ، واعتقادهم
ضرره بهم ، كالقوانين التى تبيح الربا وشرب الخمر والزنا وتشجع
على الجرائم الخُلُقِيَّة ، وتطارد كل فضيلة وتحمى كل رذيلة .

وقد بذر المستعمرون هذا النوع من القوانين ، ليهدموا الأمم
المغلوبة على أمرها ويحولوا بينها وبين قوتها ونهوضها ، ويسلبوا
الأقوات من أفواه أبنائها ، كما فعلوا بنا أيام الحرب الماضية ، وقد

سهرت على حماية هذه القوانين حكومات وطنية ، حققت للمستعمر غايته ، وأدرك رجالها منافعهم الشخصية ، ومآربهم الشهوانية وباء الشعب بالذل والهوان ليتجرع مرارة الجوع والحرمان .

عدالة الحاكم :

لا تتم عدالة الحكم الا بالحاكم الصالح بعد القانون الصالح ، إذ أنه أداة العدل والانصاف وهو أول من يستظل بظل الله يوم القيامة « يوم لا ظل إلا ظله » .

إذا اختار أهل الشورى اماما وبايعوه ثبتت له الامامة بالبيعة ، وتنحصر واجبات الامام على كثرتها في واجبين : أحدها اقامة الاسلام ، والآخر إدارة شئون الدولة في حدود الاسلام ، وقد بين رسول الله ﷺ خطر هذه المسئولية فقال : « ما من عبد يسترعيه الله رعية ، فيموت يوم يموت وهو غاشر رعيته الا حرم الله عليه الجنة » وقال : « انكم تستفرحون بالأماراة وستكون عليكم خسارة وندامة يوم القيامة فبنست المرضعة وبنت الفاطمة وقد عظم الاسلام شأن العدل وجعله أساس الحكم : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ ^(١) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ ^(٢)

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ

(١) سورة النساء : الآية ٥٨ .

(٢) سورة النحل : الآية ٩٠ .

بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ﴿١﴾

كما نفر من الظلم وجعله مؤذنا بهلاك الأمم وضياع الممالك ﴿وَقَدْ
خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (٢) وفي الحديث القدسي : « يا عبادي
إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » وقال
(ﷺ) : « الظلم ظلمات يوم القيامة » ولقد ورد التحذير من الظلم
في كتاب الله أكثر من مائة مرة لقد تعامل الناس بالظلم زمناً طويلاً
فلما طفحت أعراض الظلم حسبوها أمراضاً لا أعراضاً ، ونادراً
بعلاجها ، هذه الأعراض هي الفقر والجهل والمرض ، وقد شغل
الحاكمون بالأعراض عن الأمراض فلم ينفع الدواء ، ولم يحسم
الداء .

لقد أخذ المسلمون بالنظم الغربية في الحكم وإدارة شئون
البلاد ، كأن لم يكن لنا ماض مجيد في عدالة الحكم وصلاحيته ،
لأنهم خلعوا على الغرب كل كمال ونسيو لأنفسهم كل نقص .
إن ذلك من آثار السيطرة الغربية على شئون التربية والتعليم ،
حتى صار كثير من رجالنا أبواقاً للمستعمر يرددون مذهبهم ،
ويشيدون بنظرياته .

هذه رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري ، تضع أصول
المساواة أمام القانون : يقول فيها : « آسى بين الناس في وجهك

(١) سورة المائدة : الآية ٨ .

(٢) سورة طه : الآية ١١١ .

وقولك ومجلسك . حتى لا يطمع شريف في حيفك . ولا يئأس ضعيف من عدلك ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً .

وهذه قصة على مع اليهودى الذى قاضاه إلى عمر ، فيقول له عمر قم يا أبا الحسن وقف بجوار خصمك حتى أقضى بينكما ، فيقوم على حتى تنتهى المحاكمة ، فيعود إلى مجلسه الأول ، وقد بدت عليه امارات الغضب ، فيلتف إليه عمر ويقول : «أكرهت ما كان يا أبا الحسن» : قال نعم : قال : «وماذا أنكرت على ؟ قال أنكرت عليك ؟ أنك كنتى فى حضرة خصمى فقلت قم يا أبا الحسن هلا قلت قم يا على وقف بجوار خصمك ؟ فسر عمر سروراً عظيماً ، وقام إلى على وقبله بين عينيه ، وقال : «بأبى وأمى بكم هداانا الله وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور» .

لقد فتن الناس بالديمقراطية ، ونسوا صلاح الحاكم ، فسلبه الله عليهم ، فصار لهم سوط عذاب ، ومبائة ظلم واعنات ، حتى ضجت الأمة من حكام لا يرقبون فى مؤمن الا ولاذمة ، وأولئك هم المعتدون ، جانبوا الفضيلة ، وانسوا بالرديلة ، فاقترنت بهم الجباهير يردون مواردهم ويصدرون عن آثامهم .

إن صلاح الحاكم يقوم على أمرين لا ثالث لهما : دين وكفاية ، فمن لا دين له لا أمانة له ، ومن لا أمانة له لا عهد له ، ومن جرؤ على ربه فعصاه ، وعلى أمانته فخانها ، كأن على الناس أجراً ومن ضيع حق الله كان لحقوق العباد أشد تضييعاً .

ثم التبس عليهم الأمر فظنوا الكفاية عنصراً واحداً هو العلم وحده ونسوا أنها ذات عنصرين علم وإخلاص ، وقد يغنى الإخلاص فيسخر العلم ، ولا يغنى العلم عن الإخلاص لأن الإخلاص لا يعرف التسخير وقد رأينا كيف كان العلم وحده في ماضينا البغيض عند من لا إخلاص لهم تسخييراً للشعب يأكلون أمواله بالباطل ، ويضيعون عليه حقوقه ، ويسومونه سوء العذاب ، وصار العلم مطية لمآربهم وشهواتهم ، وسبيلاً لتغطية جرائمهم وآثامهم .

آثار الإيمان

إذا تم بناء الإيمان ، وقويت دعائمه ، تجلت للناس آثار أربعة ، كل منها يكشف عن الإيمان في قلب المؤمن ، وكل منها ضياء يرشد إلى النور والاشراق ، فلا ضياء بلا نور ، ولا نور بلا ضياء ، ولذا كان المؤمن كما وصفه النبي الأمين - كالأترجة : ريحها طيب وطعمها طيب .

الأثر الأول - الأخوة الصادقة :

هي الثمرة الأولى للدعوة الإسلامية ، وقد عني بها الرسول ﷺ لتكون أساساً للجهاد . فاذا تماسكت هذه الأمور الثلاثة ، والتحم ما بينها ، جاءت الثمرة لهذا الغرس الطيب وهي النصر ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)

فاذا صحت الدعوة ، وسلمت الأخوة ، وخلص الجهاد ، هبط النصر على المسلمين لا يعوقه معوق ، ولا يحول بينه وبين المسلمين حائل .

(١) سورة الروم : الآية ٤٧ .

لقد كان الكفار يعتقدون أن الهزيمة لا تعرف طريقها إلى المسلمين ، وأن المسلمين لا يعرفون طريقهم إليها ، فلما نام المسلمون عن دعوتهم ، اختلت أخوتهم ، مصدر وحدتهم وجماع قوتهم ، وباعثه عزتهم ، وتركوا جهادهم تحلف النصر عنهم ، واستبدل أعداؤهم بالخوف منهم الجراءة عليهم ، فغلبوهم على أمرهم ، واحتلوا أوطانهم ، وعملوا على هدم هذه الأركان حتى لا تقوم لهم قائمة ، ولا يظفروا بما وعدهم الله من النصر والعزة والغلبة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

إن الأخوة ثمرة الايمان القلبية ، والجهاد ثمرة العملية ، والنصر هدية ربانية ، وإن الأخوة حصن حصين للمجتمع ، تصونه وتحفظه ، تقدم له الخير وتدفع عنه الشر . وأن القرآن جعل هذه الآثار أوصافا للمؤمنين ، أما أركان الايمان فقد أمر بها فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (١) وأما في الأخوة فقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (٢) ... « وكذلك في الجهاد حيث قال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٣) .

لقد ادعى الغربيون زورا وبهتانا أن الاخاء ، والحرية والمساواة من ثمار الثورة الفرنسية ، وجهلوا أن الاسلام يسطر للناس إخاء صادقا منبعثا من القلب ، تتلاشى أمامه المنافع المادية ، التي لا

(١) سورة محمد : الآية ٣٣ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

(٣) سورة الحجرات : الآية ١٥ .

يعرف الغرب سواها .

إن الاخاء الغربى ليس اخاء إنما هو عصبية جنسية تارة ، وعصبية مذهبية تارة أخرى ، أما العصبية الجنسية فقد ترجمت إلى القومية التى نادى بها الغرب ، ثم نُكِبَ بها المسلمون ، فتمزقت وحدتهم ، وذهبت جامعتهم وضاعت أواصرهم الروحية .

لقد حرم الاسلام العصبية ، وحاصرها فى جميع منافذها : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » ويقول : « لا عصبية فى الاسلام » والله تعالى يقول : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١)

أما العصبية المذهبية ، فقد طلعت على الغرب بتلك المبادئ التى جلبت عليهم البلاء والشقاء يتحاربون من أجلها ، ويفنون فى سبيلها ، وقد ظنوها خيراً وبركة عليهم ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢)

هذا شأن الغرب مع مبادئهم التى نفثوا سمومها فى بلادنا ، حتى ألقوا فى روع تلاميذهم من المسلمين أنه لا خير وراءها ، ولا نعيم يرجى من غيرها ، وأما الاسلام ومبادئه فشئ لم يكن لنا ولم تكن

(١) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

(٢) سورة الأحقاف : الآية ٢٤ .

له ، لأن الزمان دار بأهله ، وما صلح للبوادى فى القرون الخوالى لم يصلح لمدينة القرن العشرين مدينة العلم والاختراع .
حقاً انها مدينة العلم والاختراع لتدمير العالم وفنائه ، لا لراحته واسعاده .

ان الاشعاع الذرى يحمل فى طياته فناء البشرية وشقاءها ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ (١)
هل من عودة إلى الاخاء الاسلامى الذى يجعله الرسول ﷺ الايمان كله « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه » .

إن هذا الأدب الاسلامى الحكيم مع سهولته ويسره يضمن للناس السعادة فى أرق صورها وأكرم أوضاعها .

إن هذا الخُلُق الاسلامى الحصيف علاج مشكلات المسلمين جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها هل يستقيم معه حقد أو حسد ، أو أذى بل يستقيم معه حب ووفاء وتراحم ، أمور لا يعرف العالم طريقه إليها ، لأنه عرف طريق الحقد والأذى ، والشر ، واخترع لذلك المدمرات والمهلكات حتى يتم النصر للحقد والأذى والشر .

ويومئذ يدمر الله الأرض بمن عليها وما عليها ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (٢)

(١) سورة الأنعام : الآية ٤٤ .

(٢) سورة الشعراء : الآية ٢٢٧ .

الأثر الثاني - الجهاد :

ثمره الايمان العملية ، لأن الحياة الأرضية قائمة على التنازع والمغالبة كما قدمنا ، والانسان تحيط به اعداؤه من كل جانب ، وأقرب أعدائه إليه نفسه التي بين جنبيه ، فلا بد من مغالبتها ، لجذبها إلى الخير عاجلة ، أو آجلة ، وقد يتعارض الخير مع الشهوة ، والشهوة لاصقة بالنفوس ، ملازمة لها ، فهي تجنح إلى اللذة العاجلة وأن أعقبها ندامة آجلة ، ولهذا كانت النفس أمانة بالسوء ، محروضة على الفسوق والعصيان ، فكان الجهاد دواء لدائها ، وعلاجاً لمرضها ، وهذا هو الجهاد الأكبر ثم تكون المغالبة مع من تجب عليك رعايته ، من الأقربين أو المحتاجين « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله » .

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يعرض رغبته في الخروج مع المجاهدين فسأله الرسول أحمى والذاك ؟ قال نعم ، قال ففيهما فجاهد .

وبعد جهاد النفس والهوى يكون جهاد ﴿الْيُوسُوفِ الْخَنَّاسِ﴾ .
الَّذِي يُوسُوفُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿١﴾
لقد عظم الله شأن الجهاد فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢)

(١) سورة الناس : الآيات ٤ - ٦ .

(٢) سورة الصف : الآيات ١٠ - ١١ .

إن الجهاد هنا عام في كل ما تجب مغالبتة ، من أعداء الداخل والخارج ، أى داخل النفس وخارجها ، ولهذا شرع الله قتال الأعداء فقال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (١) وقال ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢)

وقد بين الله شأن المجاهدين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٣)

ما فرض الله الجهاد إلا ليخلص البشرية من جبروت العبودية ، كانوا يفتحون البلاد لأهلها ، يردون إليهم حريتهم المسلوقة ، وأموالهم المنهوبة ، ويصونون أعراضهم ويحافظون على شرفهم ، فلا سيد ولا مسود ، الناس لآدم وآدم من تراب لقد فتح المسلمون البلاد بدينهم وأخلاقهم ، قبل أن يفتحوها بسواعدهم وقوتهم ، أراد المقوقس أن يعرف أحوال المسلمين القادمين لفتح مصر ، فأرسل إليهم رسله ، فلما عادوا قالوا له : « وجدنا قوماً الموت إليهم أحب من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، لا يعرف المولى من العبد إنما جلوسهم على الأرض وطعامهم على ركبهم ، إذا

(١) سورة البقرة : الآية ١٩٣ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٦ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١١١ .

نودى للصلاة لم يتخلف عنها واحد منهم ، يغسلون أطرافهم بالماء ، ويخشعون إلى الله فى صلاتهم .

فقال والله لو أراد هؤلاء أن يزيلوا الجبال لأزالوها ، ولا قبل لأحد بمقاومتهم . وهذا رسول الله ﷺ ، ينذر المتخلفين عن الجهاد فيقول :

« مَا تَرَكَ قَوْمَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ذُلًّا »

إنَّ الجهاد كما يكون قتالاً للمشركين ، يكون أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١)

خطب أبو بكر رضى الله عنه فقال : « أيها الناس إنكم تؤولون هذه الآية غير تأويلها : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ »^(٢) واني سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه يوشك الله أن يعمهم بعقابه » .

إن رسول الله ﷺ ، يصف حال المؤمنين فى آخر الزمان ، وقد فرطوا فى دينهم ، وتركوا جهادهم ، فيقول : « كيف أنتم إذا طغى نساؤكم ، وفسق شبابكم ، وتركتم جهادكم » . قالوا : وذلك

(١) سورة آل عمران : الآية ١٠٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١٠٥ .

كائن يا رسول الله ، قال : « نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » . قالوا : وما أشد منه يا رسول الله ، قال : « كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ، ولم تنهوا عن المنكر » . قالوا : وذلك كائن يا رسول الله ، قال : « نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » . قالوا : وما أشد منه يا رسول الله ، قال : « كيف أنتم إذا رأيتم المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً » . قالوا : وذلك كائن يا رسول الله ، قال : « نعم وأشد منه سيكون » . قالوا : وما أشد منه يا رسول الله ، قال : « كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتهم عن المعروف » . قالوا : وذلك كائن يا رسول الله ، قال : « نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون » . قالوا : وما أشد منه يا رسول الله ، قال : « قال الله حلفت بي لأتيحن لهم فتنة أدع الحليم فيها حيران » ^(١)

لقد لبس المسلمون الفتن التي تراحمت على أبوابهم حتى ألفوها وألفتهم وفاتهم أن الله يقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٢)

ونسوا قول الرسول الأمين : « أفضل الأعمال بعد الإيمان الجهاد في سبيل الله » وقوله : « لتأمرون بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

(١) انظر الحديث في كتاب الإشاعة في أشراط الساعة .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٦٩ .

لقد حُب إليهم الرسول الموت في سبيل الله تعالى فقال : «لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل » ولقد كان يدعوا لله أن ينزله منازل الشهداء فيقول : « اللهم أنزلني منازل الشهداء » .

اللهم خذ بيد هذه الأمة إلى الجهاد في سبيلك والعمل بدينك ، انك على كل شيء قدير .

الأثر الثالث : الحب في الله والبغض في الله :

من ثمار الايمان أن تحب المرء لا تحبه الا الله . وأن تكره المرء لا تكرهه الا الله ، بهذا وصف الله رسوله والمؤمنين : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١)

قال ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها ، وأن يحب المرء لا يحبه الا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف به في النار » ان الحب في الله مظهر الأخوة الصادقة التي هي الأثر الأول للايمان ، فلا أخوة بلا حب .

ان الحب رباط الأخوة ، وهو عاطفة نفسية ، تغرسها الموافقة في الأخلاق والعادات ، فمن توافقت أخلاقهم وعاداتهم تأخوا ، وإذا تأخوا فقد تحابوا .

(١) سورة الفتح : الآية ٢٩ .

لقد حاول أعداء المسلمين أن يفرقوا بينهم في الأخلاق والعادات حتى يتباينوا وإذا تباينوا تنابدوا ، وإذا تنابدوا فقد تفرقوا واختلفوا « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » لقد استخدم هؤلاء الأعداء في اشعال الفرقة بينهم ، فعددوا ألوان ثقافتهم وعاداتهم وأخلاقهم .

إن اختلاف الأزياء ليس الا رمزاً لاختلاف الثقافات ، والأخلاق والعادات ولن تجد أمة في مثل أزيائنا ، اختلافاً يبيعث على السخرية والأزدراء .

وقد كان المسلمون ، وكان الايمان طابعهم ، فتوحدت ثقافتهم ، واتحدت أخلاقهم ، وتجانست عاداتهم وطبائهم ، فأشرقت الوحدة في قلوبهم وعقولهم ، وظهرت آثارها في أخلاقهم وأعمالهم .

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ ^(١)

فهذا التأليف القلبي أساس الأخوة ومبعث الحب الروحي الذي لا تنقصم عراه ولا تنقطع أواصره .

أما بغض في الله ، فهو مكمل للحب في الله ، وقد نزه الله المؤمنين عن مودة أعداء الله مهما كانت الروابط الطبعية بينهم ، ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ، أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٣ .

فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَدَخَلَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾

وقد نهى الله عن موالاة الآباء والأبناء إذا كفروا بالله وبرسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ . قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢﴾

وقد حرم الله موالاة الكفار ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣﴾

ثم وصف الذين يحالفون الكفار بالنفاق ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ، فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ ﴿٤﴾

وقال جل شأنه ﴿بَشِّرِ الْمُتَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُوا عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ،

(١) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

(٢) سورة التوبة : الآيتان ٢٣ - ٢٤ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٢٨ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٥٢ .

فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١﴾

وقد بين الله سبب ذلك من كراهة الكفار للمؤمنين ، وحرصهم على أذى المؤمنين ، والخلاص منهم ، ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢)

وقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (٣)

ثم حذر المسلمين من الركون إليهم والاستعانة بهم : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تَصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٤)

يقول حكيم الاسلام جمال الدين الأفغانى : « إن الغرب على

(١) سورة النساء : الآيات ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٠٥ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٠٩ .

(٤) سورة آل عمران : الآيات ١١٨ - ١٢٠ .

اختلاف أمه وشعوبه عرقاً وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص ، فجميع دوله متحدة معاً على ذلك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وإن هذه الشعوب متفقة على عدااء الإسلام ، وروح هذا العدااء متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً متوالياً لسحق الإسلام سحقاً .

هنا يدرك المسلمون مبلغ الشطط الذى وقعوا فيه من التحالف مع الكفار والركون إليهم ، والاعتماد عليهم فى شئونهم ، يحتمون بقوتهم كما تحتمى الفريسة بالسبع ، أو كالمستجير من الرمضاء بالنار .

وإن لنا فى هيئة الأمم عبرة وعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد لقد أقرت العدوان الاسرائيلى الغاشم وجعلته حقاً للغاصب الأثيم ، فلما ترتب عليه أمر يتصل به ، وهو تنظيم هذا العدوان الصارخ ، ولم يرض الصهونيون عن هذا التنظيم . صمت هيئة الأمم آذانها وأعرضت عن أنين المسلمين ، وعويل حلفائهم من المسلمين المستضعفين الذين ركنوا إليهم ورضوا بمواثيقهم ، وما مواثيقهم الا الأكاذيب يخادعون المسلمين ليصرفوهم عن وحدتهم ، ويصرفوهم عن دينهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُتَّفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَرُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (١)

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٦ .

وإني أقولها صريحة مدوية للمخدوعين من أبناء أمتنا الذين حالفوا الكفار ، واتخذوهم أولياء من دون المؤمنين ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا . إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ^(١)

لقد أزال المسلمون الحواجز الربانية بين المؤمنين والكافرين حتى طغى الكفر على الايمان واستبد الباطل بالحق ، وسرى الشك في اليقين ، وانصرف الناس عن عبادة رب العالمين .

قد يتوهم صغار النفوس ضعاف العقول أن تحريم موالاة الكفار تتنافى مع العدل وحسبهم هذه القاعدة القرآنية في تثبيت العدالة وضمانها للعدو قبل الصديق ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ^(٢)

فتحريم ولاية الكفار المراد به عزل الأصحاء عن المرضى حتى لا تنتقل العدوى ، وأمراض الأرواح أنكى وأخبث من أمراض الأجسام ، ولكن الماديين لا يعرفون الا أجسامهم ، ولا يخافون الا عليها ، ولا يقررون مبدأ العزل الصحي الا من أجلها ، أما الأرواح فلا يؤمنون ولا يعترفون بصحتها أو مرضها .

وكذلك لا يتنافى تحريم موالاة الكفار مع البر والله تعالى يقول : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) سورة النساء : الآيتان ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٨ .

الْمُقْسِطِينَ ﴿١﴾ .

وهذا رسول الله ﷺ ، وقد بشر المسلمين بفتح مصر يوصي بقبضها خيراً « إِنَّ اللَّهَ سَيَفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِصْرَ ، فَأَوْصِيكُمْ بِقَبْضِهَا خَيْرًا ، فَإِنَّ لَكُمْ مِنْهُمْ نِسَاءً وَصُهْرًا » وكان له جار يهودي ، فكلما أولم ولمة ، قال : « لَا تَنْسُوا جَارَنَا الْيَهُودِيَّ » .

وهذا عمر رضى الله عنه يحبي هذه السنة الاسلامية ، فيفرض لليهودى فى شيخوخته راتباً من بيت مال المسلمين ، ويقول أكلنا شبابه ، ونترك شيخوخته ، أعطوه من مال المسلمين .
أية كفالة انسانية هذه التى شرعها الاسلام ، وعمل بها حكامه الأولون قبل أن يحلم الغرب بما يسميه حقوق الانسان بأكثر من ألف سنة .

إن الاسلام كنز مليء خيراً وعدلاً وبراً للمسلمين وغير المسلمين ، فلا يجد أبناء الاسلام فى تيه الضلال يفتنون كما فتن الغربيون عن قواعد الخير والعدل والبر ، فانهم ما وصلوا إلى قطرة من بحر الاسلام الزاخر ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

الأثر الرابع - الحكم بكتاب الله :

شأن المؤمن أن يطيع الله فى كل ما جاء به الدين : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢)

(١) سورة المنتحة : الآية ٨ .

(٢) سورة النور : الآية ٥١ .

إن الله جلت قدرته خلق الخلق لطاعته وعبادته ، وهو بهم رحيم ، بشرع لهم ما يضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾^(١)

لقد أقسم الله بذاته ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ على أن الذين لا يحكمون بينهم كتاب الله ، وسنة رسول الله ليسوا مؤمنين : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢)

إن مقتضى الايمان الطاعة ، ودليله الثقة ومن لم يحكم بما أنزل فهو عاص لربه غير واثق بشرعه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾^(٣)

فالمعرضون عن شريعة الله من المسلمين منافقون في الدرك الأسفل من النار لقد حكم المسلمون بينهم شريعة الله دهرًا طويلا ، كانوا فيه خير أمة ، أخرجت للناس صلاحاً وتقوى ، وعدالة ، وقوة سياسية واقتصادية ، فلما فرطوا في دينهم ، واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به عند ذلك اختلت أمورهم ، وساءت أحوالهم ، وذهبت

(١) سورة المائدة : الآيتان ٤٩ - ٥٠ .

(٢) سورة النساء : الآية ٦٥ .

(٣) سورة النساء : الآية ٦١ .

رحمهم ، وضاعت قوتهم ، واستطاع اعداؤهم أن يتحكموا في رقابهم ، ويتصرفوا في شئونهم ، وفرضوا عليهم حصاراً محكماً حتى لا يفلتوا من حبالهم ، ثم عبثوا بمقوماتهم ، ونقشوا السموم في علومهم وثقافتهم وحطمووا تراثهم ، وأغروهم بالمنكرات والمفاسد ، حتى يضمنوا شقاءهم ، ويطمئنوا إلى ضعفهم ، حتى إذا الجئوا إلى الجلاء عن أراضيهم بقيت سمومهم تسرى في قلوبهم وأرواحهم فتتال منهم أضعاف ما نال العدو بعدته وعدده ، وهذا هو الاستعمار الأكبر . الذي يعمل الاسلام على تحرير المسلمين من آفاته وتخليصهم من برائته .

إن الموبقات والمنكرات التي تعيش في جسم الأمة الاسلامية أخطر عليها من عدوها لقد أدرك هذا عمر رضى الله عنه في وصيته لجيشه «أحذركم من المعاصي فانها أخوف عليكم من عدوكم : فانما تنصرون بفضل طاعتكم لله ومعصيته عدوكم له ، ولا تقولوا ان عدونا شر منا ولن يسلط الله علينا من هو شر منا ، فان بنى اسرائيل لما عملوا بالمعاصي ، سلط الله عليهم الجوس عباد النار وهم شر منهم ﴿ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾ (١)

إن رسول الله ﷺ برسم حدود الطاعة كما رسمها الاسلام : السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصيته ، فان أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة ثم يدفع المسلمين إلى الشجاعة السياسية فيقول : أفضل الجهاد كلمة حق تقال عند امام جائر» .

(١) سورة الإسراء : الآية ٥ .

وإذا كانت الشريعة الإسلامية لخير المسلمين وسيادتهم ، فمن لا يأخذ بها فهو كافر بربه فاسق عن أمره ، ظالم لنفسه ولأمته قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وفي آية ثانية ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وفي آية أخرى : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(١)

لقد أخذنا بقوانين الغرب في عقوبات الجرائم فما ازدادت الجرائم الا انتشارا وما ازداد المجرمون الا كثرة حتى ضاقت بهم السجون ، وحتى صارت السجون عزاء لهم عما افلت من أيديهم مما حرصوا على سرقة وحيازته ، واعجب العجب أن الحياة في السجن قد تكون خيراً من حياة المجرمين في منازلهم .

إن شريعة الاسلام لا تعاقب المجرم المحتاج ، أو المحتاج المجرم . ولكنها تعاقب المجرم الغنى قبل المجرم الفقير لأن الأول يسلط غناه على الفقراء فيدفعهم إلى الجريمة دفعاً ، ويسوفهم إلى الشر سوقاً . إن شريعة الاسلام كل لا يتجزأ ، لا تتعاطى بعضاً ، وترك بعضاً ، وقد يكون من وراء ذلك شر مسيطر .

إن جرائم الغنى التي لا تعتبرها القوانين الحديثة جرائم ، أشد من جرائم الفقر بل انها باعثة الفقراء على الجرائم .

أليس منع الزكاة جريمة اجتماعية دفعت أبابكر إلى اعلان الحرب على مانعيها ، وقال قوله الخالدة : « والله لو منعوني عقال بعير كانوا يدفعونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » أليست هذه الجريمة هي التي

(١) انظر الآيات ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ من سورة المائدة .

أضغنت صدور الفقراء على الأغنياء ، فدفعتهم إلى السلب والنهب ،
وما إلى السلب والنهب .

أليس اسراف الأغنياء وترفعهم ، وانغماسهم فى الشهوات الآتمة
هى التى صنعت ألوانا من الجرائم الخلقية بين النساء والرجال .
هل عمرت المراقص والخمارات والملاهى المحرمة الا بأولئك
الذين عاثوا فى الأرض فساداً بالأموال التى ظنوها أموالهم ،
واعتقدوا أنهم أحرار فيما ينفقون وفيما لا ينفقون .

أليس هؤلاء سفهاء يتصرفون فى أموال الله على غير مقتضى
العقل والشرع ، وحكم الله أن ترد أموال الله إلى الله : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا
السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ
وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (١)

إن التصرف فى الأموال على هذه الصورة إنما هو الظلم
الاجتماعى ، وإنما هو الفسوق والعصيان فمن ترك حكم الله فيهم فهو
ظالم لهم ولنفسه ، راض بفسوقهم وفسادهم .

إن الله أكمل لنا الدين ، وأتم علينا نعمة الشريعة ، فلنعد إلى
ديننا ونرجع إلى ربنا ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ
أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (٢)

اللهم نصرك الذى وعدتنا ، ورحمتك التى بسطتها لعبادك
المؤمنين .

(١) سورة النساء : الآية ٥ .

(٢) سورة غافر : الآية ٤٣ .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ
اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا .﴾^(١)
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين
وخاتم النبيين .

محمد عبدالله فوده

(١) سورة النصر .

الفهرس

رقم	الموضوع	صفحة
١ -	الاهداء	٣
٢ -	المقدمة	٥
٣ -	حقيقة النصر	٧
٤ -	حقائق النصر - الحقيقة الأولى	٢١
٥ -	الحقيقة الثانية	٢٦
٦ -	الحقيقة الثالثة	٣٦
٧ -	الحقيقة الرابعة	٤٢
٨ -	الايمان	٥٠
٩ -	شعبة العقيدة	٥٠
١٠ -	شعبة العبادة	٥٠
١١ -	شعبة المعاملة	٥٤
١٢ -	أركان الايمان	٥٨
١٣ -	الركن الأول - التقوى	٥٨
١٤ -	الركن الثاني - الطاعة	٦٤
١٥ -	الركن الثالث - الصبر	٦٨
١٦ -	الركن الرابع - العدل	٧٥
١٧ -	عدالة الفرد	٧٥
١٨ -	عدالة المجتمع	٧٨
١٩ -	عدالة الحكم	٨٤
٢٠ -	آثار الايمان الأثر الأول - الأخوة	٨٩
٢١ -	الأثر الثاني الجهاد	٩٣
٢٢ -	الأثر الثالث الحب في الله والبغض في الله	٩٧
٢٣ -	الأثر الرابع - الحكم بكتاب الله	١٠٣

صدر من هذه السلسلة

المؤلف	الكتاب
[الدكتور حسن باجودة]	١ - تأملات في سورة الفاتحة
[الأستاذ أحمد محمد جمال]	٢ - الجهاد في الإسلام مراتبه ومطالبه
[الأستاذ نذير حمدان]	٣ - الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين
[الدكتور حسين مؤنس]	٤ - الإسلام الفاتح
[الدكتور حسان محمد حسان]	٥ - وسائل مقاومة الغزو الفكري
[الدكتور عبد الصبور مرزوق]	٦ - السيرة النبوية في القرآن الكريم
[الدكتور علي محمد جريشة]	٧ - التخطيط للدعوة الإسلامية
[الدكتور أحمد السيد دراج]	٨ - صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية
[الأستاذ عبد الله بوقس]	٩ - النوعية الشاملة في الحج
[الدكتور عباس حسن محمد]	١٠ - الفقه الإسلامي آفاقه وتطوره
[د. عبد الحميد محمد الهاشمي]	١١ - لمحات نفسية في القرآن الكريم
[الأستاذ محمد طاهر حكيم]	١٢ - السنة في مواجهة الأباطيل
[الأستاذ حسين أحمد حسون]	١٣ - مولود على الفطرة
[الأستاذ علي محمد مختار]	١٤ - دور المسجد في الإسلام
[الدكتور محمد سالم محيسن]	١٥ - تاريخ القرآن الكريم
[الأستاذ محمد محمود فرغلي]	١٦ - البيئة الإدارية في الجاهلية وصدر الإسلام
[الدكتور محمد الصادق عفيفي]	١٧ - حقوق المرأة في الإسلام
[الأستاذ أحمد محمد جمال]	١٨ - القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١]
[الدكتور شعبان محمد اسماعيل]	١٩ - القراءات أحكامها ومصادرها
[الدكتور عبد الستار السعيد]	٢٠ - المعاملات في الشريعة الإسلامية
[الدكتور علي محمد العماري]	٢١ - الزكاة فلسفتها وأحكامها
[الدكتور أبو اليزيد العجمي]	٢٢ - حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم

الكتاب

المؤلف

- ٢٣ - الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا — [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
- ٢٤ - الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر — [الدكتور عدنان محمد وزان]
- ٢٥ - الإسلام والحركات الهدامة — [معالي عبد الحميد حمودة]
- ٢٦ - تربية النشء في ظل الإسلام — [الدكتور محمد محمود عمارة]
- ٢٧ - مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي — [الدكتور محمد شوقي الفنجري]
- ٢٨ - وحى الله — [الدكتور حسن ضياء الدين عتر]
- ٢٩ - حقوق الإنسان وواجباته في القرآن — [حسن أحمد عبد الرحمن عابدين]
- ٣٠ - المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية — [الأستاذ محمد عمر القصار]
- ٣١ - القرآن كتاب أحكمت آياته [٢] — [الأستاذ أحمد محمد جمال]
- ٣٢ - الدعوة في الإسلام عقيدة ومنهج — [الدكتور السيد رزق الطويل]
- ٣٣ - الاعلام في المجتمع الإسلامي — [الأستاذ حماد عبد الواحد]
- ٣٤ - الالتزام الديني منهج وسط — [عبد الرحمن حسن حبكة الميداني]
- ٣٥ - التربية النفسية في المنهج الإسلامي — [الدكتور حسن الشيرقاوى]
- ٣٦ - الإسلام والعلاقات الدولية — [الدكتور محمد الصادق عفيفي]
- ٣٧ - العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية — [اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ]
- ٣٨ - معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها — [الدكتور محمود محمد بابلي]
- ٣٩ - النهج الحديث في مختصر علوم الحديث — [الدكتور علي محمد نصر]
- ٤٠ - من التراث الاقتصادي للمسلمين — [الدكتور محمد رفعت العوضى]
- ٤١ - المفاهيم الاقتصادية في الإسلام — [د. عبد العليم عبد الرحمن خضر]
- ٤٢ - الأقليات المسلمة في أفريقيا — [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
- ٤٣ - الأقليات المسلمة في أوروبا — [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
- ٤٤ - الأقليات المسلمة في الأمريكتين — [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]

مطبعة رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة

حياة المؤلف - فلاسطور

- محمد عبد الله فوده
- من أوائل المتخرجين في دار العلوم سنة ١٩٣٣م
- من الناجحين في مسابقة المتنازعين للتعليم الثانوي سنة ١٩٣٩
- عين مدرسا للغة العربية والدين بالمدرسة العباسية الثانوية بالاسكندرية سنة ١٩٤٠م
- أنشأ بالاسكندرية جماعة كتاب الجهاد كما أنشأ مجلة الكتاب للدعوة إلى ١ -
- الحكم بكتاب الله ٢ - والأخوة الإسلامية ٣ - وحل مشكلات التعليم
- اختاره الاخوان بالاسكندرية وكيلا لهم بعدما انضمت هم الكتاب
- نقل إلى المنصورة فاختاره الاخوان وكيلا لهم فاشغل بأغصان والكتابة بالصحف
- اشترك في تحرير مجلة المباحث التي أنشأها مكتب الارشاد العام للاخوان بالقاهرة واشتغل حل مشكلات التعليم تحت عنوان قضية التعليم
- بعد ثورة سنة ١٩٥٢ طلب منه مكتب الارشاد أن يبعث بأرائه إلى وزارة المعارف فقدم ٤٣ اقتراحا أوشا تسمية الوزارة وزارة التربية والتعليم ، ومنها بدء الدراسة بسن السادسة ومدة الدراسة ست سنوات يعود بعدها التلاميذ إلى الحقول إن كانوا بالقرى وإلى المصانع إن كانوا بالمدن
- أنشأ المرحلة الاعدادية لقلعة من المتنازعين لأعدادهم زراعيا وصناعيا وتجاريا
- رشحه الاخوان المسلمون لانتخابات مجلس النواب سنة ١٩٥٠ هو وخمسة منهم الشيخ الباقوري والشيخ عبدالمعز عبدالستار
- ألقى عشرات المحاضرات منها ما طبع وما لم يقطع منها ١ - غابتنا في الحياة ٢ -
- فريضة الجهاد ٣ - بين الحق والواجب ٤ - بين الدين والعلم
- في سنة ١٩٦٠ استقال من الوزارة وأنشأ مع بعض المديرين مدارس ثانوية واعدادية
- وفي سنة ١٩٦١ رشحه اخواه الشيخ سيد سابق والشيخ الغزالي لبعثة وزارة الأوقاف للدعوة في رمضان بدولة لبنان مع عدد من كبار العلماء منهم الشيخ إبراهيم الدسوقي وزير الأوقاف السابق فاذى واجبه على أحسن وجه
- وفي سنة ١٩٦٨ تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل (رحمه الله) تمنحي حق الإقامة والعمل فعينت موجهة للتعليم الثانوي وعملت بمعهد العاصمة فتخرج على يدي كثير من الأمراء منهم الأمير سلطان بن فهد والأمير خالد بن فهد والأمير حمود ابن عبدالعزيز في كلية الآداب بجامعة الرياض